محمد سهيل ديب

نساء جزائريات

مقاومات للاستعمار

1954 - 1962



تذكيرا بجميع أولئك المعروفات وغير المعروفات - من النساء اللواتي سقطن في ميدان الشرف -



محمد سهيل ديب

نساء جزائريات

مقاومات للاستعمار

1954-1962

تذكيرا بجميع أولئك
المعروفات وغير المعروفات من النساء

اللاتي سقطن في ميدان الشرف

المؤلف: محمد سهيل ديب
الترجمة: أحمد شعيب
الصور: هواري خلادي بوشناق
اعداد الصحف: جميلة رحال
الحفر الضوئي و الطبع: AGP Oran

شكر وعرفان

نشكر أقارب مليحـــة حميدو، خاصة أخواها عمر وسماعين حميدو على تقديمهم لنا الشهادات والوثائق التي اعتمدناها في إعادة صياغة خط مسيرة الشهيدة في حياتها.

كذلك نبدي ثناءنا الجميل على أقارب سليمة طالب خاصة رفيقتها في الكفاح ك.هــ التي رافقـــتها طيلة مدة المقـــاومة الشعبية. والتي أمدتنا بما هو أساسي من المعلومات التي احتوى عليها هذا الكتيِّب.

كما أن شـــــكرنا موصول لأعضاء لجنة ECOLYMET الذين سمح[illegible] عدد من المعلومات التي جاءت في ملتقى ١٧ [illegible] يخص الشهيدة حاج سليمان. كما أن تدخل السيدة [illegible] ويسي عوالي زوجة السنوســـي التي كان لها نفس خط مسيرة عويشة حاج سليمان أضاء لنا كثيرا من التفاصيل. وكذلك فإن شكرنا موصول بالســـيد الحاج سليمان محمد قـــريب الشـــهيدة الذي أمدنا بمعلومات ثمينة أفادتنا كثيرا.

تمهيد

كثيرٌ هُنَّ النساء اللواتي قدمن طيلة حرب الجزائر الرهيبة التي دامت سبع سنوات كل ما يملكن من غالٍ ونفيس، وكرَّسن ما استطعن من جهدهن دون توان وتراخ وتردد فداءً للوطن واستقلاله، مما جعلهن يتربعن على عرش بطولة قلَّ لها نظير في تاريخ كفاح الأمم.

ولقد حفظ التاريخ ومَجَّد بعضا من أسماء أولئك البطلات، لكن الكثيرات منهن بقيت أسماؤهن مغمورة مخفية لا يُعرف عنهن إلا القليل. لقد حققن جميعهن دون استثناء مكاسب خوَّلتهن مكانة من التميُّز والشرف في ذاكرة [illegible] مما قدمن من دروس عن حقيقة البطولة النسائية وكيف يجب أن تكون تلك [illegible]

إنه ليس من المحال فحسب، بل من الإجحاف في حق تلك النساء البطلات إغلاق قائمة أسماء المقاومات. فكثير منهن مضين بشهاداتهن الحية المباشرة عما قدمن من تضحيات، تاركات وراءهن جهلا بخط ماضي سير حياتهن يصعب تداركه، بله معرفته.

وكدليل على ذلك: ماذا نعرف عما قامت به سليمة طالب ورفاقها في الكفاح داخل المغارة التي لجأوا إليها، والتي كان يختبئ فيها أربعة عشر مجاهدا قابلوا الجيش الفرنسي

بمقاومة باسلة وقتال شرس عنيف قبل أن يقضوا ويستشهدوا؟ إذا حاولنا إعادة وصف تلك الأحداث غير المشاهدة في إطار حكاية تاريخية من أجل أدب نُقدِّمه لفتياتنا، فإننا حتماً نكون مجبرون على ملئ الثغرات ببنية معقولة. أما عن ما قام به الجنود الفرنسيون، فنجد وصف أحداث المعركة من قبل الناس الذين شاهدوا من بعيد، وشهاداتهم عما جرى معروفة تفي بالغرض.

ومثال آخر: كيف يُمكن معرفة ما جال في خاطر مليحة حميدو وما دار في خَلَدها دقائق قبل إعدامها من طرف الشرطة الفرنسية؟ إن تعاقب الواقع المحدود بدقة وبشكل واضح بَيِّن وأكيد هو كاف لمدوِّن الأخبار، لكنه يبقى خافتا باهتا لكتابة أدب تاريخي يبغي إشراك القُرّاء خاصة الشباب منهم في حدث كان الشاهد الأساسي عنه غائبا. إننا لا نستطيع [illegible] ذلك الفراغ من الأخبار سوى بخيال يستمد مصداقيته على أساس من الا [illegible] للسِّمات الحقيقية لتلك الشخصية، والظروف المادية التي كانت توجد [illegible] من الأوقات. وهذا ما سنحاول فعله.

إن تصرُّف مليـ[illegible] وهي محاطة عن قرب بمجموعة من القنّاصة واندفاعها للقيام بعملية هروب كانت تعلم علم يقين أنّها لن يكتب لها النجاح، لا يمكن تفهُّمه إلا إذا عرفنا وأدركنا معنى «المقاومة»، ومنظومة القيم التي قادتْها إلى القيام بتلك التصرفات. وهذا ما يدل بشكل مُؤكد ويجعل الكاتب أو المؤرخ لا يفهم الأحداث ويصل إلى الحقائق إلا إذا استند إلى فهم السرائر والغوص في أعماقها لمعرفة وتفهُّم ما يدور فيها

بشكل يجعل تلك الحقائق والأحداث في السرد التاريخي واضحة جلية معقولة مرتكزة على أسباب.

إننا لم ننوِ التَّقليل من تلك الوقائع التي كانت الشهيدات الشابات بطلتهن ولم يكن ذلك من اختيارنا. ولكن كان غرضنا الحديث بشيء دقيق وبِبُعدٍ عقلاني عن شخصياتِهن وما اشتملت عليه من سجايا لنصل إلى معرفة الحكاية كما تُمليها الحقيقة التاريخية.

تلك كانت رغبتنا وذلك كان أملنا أن نذكر بعضا من أولئك [illegible]كافحات المقاتلات الشجاعات المِقدامات من أجل تعريفهن للأجيال وال[illegible] إنّهما ثلاثة: **سليمة طالب** واسمها الحربي نعيمة. **مليحة حميدو** واسمها الحربي [illegible]سيدة. **عويشة حاج سليمان** و اسمها الحربي فوزية.

محمد سهيل ديب



1935-1962

سليمة طالب



سيدي بلعباس

تمتد هذه المدينة باسترخاء على ضفاف مكرة على مسافة واسعة منبسطة، ويدّعي الفرنسيون أنّـها من صنعهم منذ ١٨٤٣، إذ أن معمارها قد استُوحي من تقنيات الهجوم والدفاع، ويقصدون من هذا اللفظ (الدفاع) وحـدة أو مجموعة متكاملة ومتماسكة من التحصينات من أجل صدّ عدو قد يهدد ليس المساحة المحوط عليها فقط، بل أيضا كل المنطقة المجاورة، تشمل خصوصا البنيات التحتية لصالح الجيش عند المعركة، ولذلك احتضنت سيدي بلعباس الدار الأم للفيلق الأجنبي بالجزائر.

في الواقع إن هذه الجهة من القطر الجزائري هي مليئة بالأحداث التاريخية، على غير ما يدَّعيه المستعمر، والدليل على ذلك أنّـها كانت محطة الملك الزياني أبـو حمو الثاني كما يذكر المؤرخ التنسـي المتوفى سـنة ١٤٩٤م، وأنّـها كانت أيضا موضع تجمع الجيوش الملكية وحاميات قوات بني عامر لاسترجاع الأقـاليم التي كانت بأيدي المرينيين.

لنعد الآن إلى العصر الحديث.

إن العبقرية العسكرية للحقبـة الاسـتعمارية تَمثّلت في كثير من المنجزات التي اشتملت على التحصينات، وشق الطرق، وبناء القناطر والسكك الحديدية، و كل البنى التحتية التي تسهل حركة التنقل للقوات الفرنسـية، والتضييق على كل ما يحتمل أن



منظر شامل لمدينة سيدي بلعباس



أحد الشوارع الرئيسية لسيدي بلعباس

مسقط رأس سليمة طالب

يصدر من القوات المعادية لها. فهل كان من الممكن أن تستوعب أنه سيخرج من وسط الأهالي المستعمرة البائسة الذين كان لا يقيم لهم وزنا، مقاومين بسلاء يقظي الهمّة يفشلون مشاريعها؟

طيلة سنوات ٢٠ ـ ٢٥ عمد المستعمر إلى ثورة كبيرة في المجال الزراعي، محولا الأراضي وعطاءاتها إلى صالحه، وذلك بالانتقال من المحراث بثلاث سكك الذي كان يشق الأرض بحياء ومشقة بالغة، إلى العربة المشدودة بقرص كان الأمريكيون قد ارتكزوا عليها في زراعة أراضيهم، إلى الجرار الذي يشق مساحات وأخاديد عميقة تعطي انطباعا حزينا لقبور ستستقبل في أحضانها فلاحين بؤساء منهكين لا يزالون يتحدون الجوع والبرد.

لأجل تلك القلّة من المعمرين كانت تُشق الأراضي الشاسعة وتُبذر قمحا، وتدفع بشراهة عُقَاب جائع فصائل عريضة جائعة من الأهالي لم يكن بإمكانها رعي حيواناتها الهزيلة إلا في رقعات أرض ضيقة على امتداد الطرق والسكك الحديدية.

أما المدينة ذاتها، فإن الأحياء الشعبية الآهلة بالسكان كانت تكتظ بالمسلمين الذين كانوا يسكنون بيوتا بائسة بؤس أحوالهم الشقية، في حين بُنيت للمعمرين المحال الرئيسية الفاخرة بإتقان، ورُتّبت طرق المواصلات فيها بعناية على امتداد مسافات عريضة.

على غرار جميع مدن البلاد مثلها مثل البلدان الأخرى المستعمَرة، كان الأهالي

على غرار جميع مدن البلاد مثلها مثل البلدان الأخرى المستعمرة، كان الأهالي يتألمون من عذاب المحتل البغيض. فقد كانت المدينة مقسمة إلى قسمين: قسم يضم المستعمرين بحدائقه وينابيعه كما هو الحال في ساحة كارنو أين العمارات المحاطة بمربعات خضراء، طامحة، تريد أن تعانق السماء في علوها. أضف إلى ذلك أحياءها الراقية، وشوارعها المنارة المزدانة بساحات أضحت متنزهات تُرتاد الليل والنهار، وتُزار خلالها واجهات متاجرها الفاخرة الآخذة بعقول النساء المرافقات لأزواجهن وذويهن. هي حياة كلها حيوية ونشاط، وعيش كله رغد ونعيم لمدينة احتواها اسم مثير للسخرية أطلقه عليه العسكر الاستعماري في بداية احتلاله للجزائر: (مدينة بسكويت) مع أنّها لم تكن سوى الجنينية الحاضنة لمخيم عسكري أقيم في العراء لصد هجمات قبائل بني عامر التي انضمت لقائد المقاومة الجزائرية العظيم الأمير عبد القادر تسانده وتُعزّره وتقوّي جيشه. بالمقابل كانت هناك أحياء شعبية "القـ[illegible] [illegible]ـتقس" أجواء بائسة تسيطر عليها روائح أعمال كنودة قاسية تكاد لا تُغيب [illegible] لا مساحات خضراء موجودة إلا ما ندر، كأن قحولة تلك الأمكنة [illegible] ار انعكاس لما كانت تعيشه نفوس سكانها من ضنك العيش، وشظف [illegible] لقد أمسك البؤس بتلابيب الناس فلم يكن لهم متنفس إلا في ذلك الفناء الواسع المسمى "الطحطاحة"، هذا المكان الوحيد الذي كان يطفح إناؤه بالمناظرات الخطابية ويصدح بشعر شعراء المنطقة، "القوالون"، وبغيتهم الشد على أيدي الفتيان والنهوض بهممهم وتحرير بلدهم والقضاء على البؤس وتمزيق رداء الظلم وجلاء ظلام المستعمر.

عائلة واعية حتى النخاع :

الأب: حرٌ في أُشْرِبَ قَلْبُه بالإيمان:

إن الأب سيدي محمد طالب الذي كان يمتهن المهنة المتواضعة "الإسكافية" كان في ذات الوقت إماما لمدرسة سيدي بلعباس، فلا يز ال يذ كر ذلك اليوم المشهود الذي استقبلت فيه المدينة من عام ١٩٣٢ - ثلاث سنو ات قبل ميلاد سليمة - الشيخ الجليل العلامة ابن باديس الذي كان قد شق طريقه إلى المدية والجلفة والأغو اط وتيارت وفر ندة ومعسكر وسعيدة قبل أن يحط الر حال بسيدي بلعباس.

أدى سيدي محمد طالب الصلاة في المسجد مع الشيخ ابن باديس كسائر أهالي البلدة، لأن المسجد كما كان ير ى الشيخ هو من أولو يات المسلم الواجب عليه ارتيادها حينما يحل بمدينة غر يبة في أرض مسلمة، ويكون ذلك رمزا راسخا يدل على الر باط الأخو ي القوي بين المسلمين، ووحدتهم، والحبل المتين بين المسلمين ودور العبادة.

في ذلك اليوم المشهود و في المسجد الواقع في قلب المدينة، أمام حفل من المؤمنين، ألقى الشيخ الإمام حصة دينية، ودعو ة إيمانية. ولا زالو ا كلهم يتذ كرون ما قاله الشيخ بخصوص سورات قرآنية و أحاديث شريفة، فظلت كلماته محل اهتمامهم، وشغلت بالهم مدة طويلة من الز من يتأملو نها ويتفحصونها وير ددونها: "تعلموا، تثقفوا، تحابوا بقوة، تر احموا فيما بينكم وكونو ا عباد الله إخو انا". إنها كلمات صيغت بلغة بسيطة فهمها واستوعب معانيها كل من حضر واستمع



ساحة كارلو سنة ١٩٥٠



[illegible] ١٩٣٠

إليها. إنـــها كلمات من نو ر بحق استشفها الذي صار بعد فتر ة مديرا للمدرسة.

وقد استوعب الشبـــاب مغز اها : "إن المدارس، والثانويات، والجامعات، منابـــر ومنائر تلاحـــق ظلمات الجهل والأمية، وتحارب انـــهيار الأخلاق والفضائل، وتقاوم رداءة الطباع وبلادة الشعو ر".

لقد سرت كلمات الشيخ في كيان الشباب وضخت في شـــرايينهم دماء جديدة كلها إحساس بخطورة المر حلة وضر ورة تخطيها بالعلم والتحـــاب والترا حـــم ووحدة الكلمة والصف.

أضحت المساجد في المدينة بعد تلك الكلمات التي أطلقها الشيخ ابن باديس أماكن تدعو إلى الإصلاح، فكان لا بد أن تك[illegible]ناك رده [illegible] السلطات الفرنســـية تصد هذه الدعوة وتدفعها، فمنعت ك[illegible]يب إصلاحـــي يعتلي المنبر، الأمر الذي خيب آمال الأهالي وطعنهم في الصميم، لكن ذلك لم يمنع النفوس الطموحـــة المتفائلة ببشائر الإصلاح ومر اميه الخيرية إلى الاشتراك بدفع الأموال لخز ينة جمعية العلماء المسلمين الجز ائر يين حتى يكون لها فر ع وتواجد بمدينة سيدي بلعباس.

لكن السلطات الفرنسية التي لا تغفل عيناها ولا تنام عن كل تحر ك من قبل مدارس جمعية العلماء المسلمين، عمدت إلى غلق المدارس العر بـــية في تلمســـان وســـيق وسيدي بلعباس. فثار ت لذلك الفعل المبَّيت المشـــين ثائر ة ســـيدي محمد طالب وكل الجز ائر يين معتبرين إياه حر با صليبية ضد قـــيمهم الأصيلة، وشـــخصيتهم العربية

في ذلك اليوم الرابع عشر مارس من سنة ١٩٣٥ رزقـت عائلة طالب التي كانت تقطن وسط مساكن في غاية التواضع في قلب حي "القرابة" بـنتا أدخلت بَـهجة وسرورا على قلبَي الوالدين، فسـموها سـليمة، وهم لا يدرون ولا يتصورون أنه بعد اثني وعشرين عاما سينسب إليها اسم حربي من قبل قادتـها هو "نعيمة" تنضوي تحته، وتسلم له بـدنـها وروحـها مُقاوَمة للاستعمار، وطلبا لحرية الوطن واستقلاله.



منظر لحي القرابة القديم



فعلا بعد أن تخطت العشر ين سنة من عمر ها أصبحت محاربة جز ائر ية مثل من سبقـوها في الز من من محاربي بـني عامر الذين انضموا إلى عسـاكر السلطان الز ياني أبو موسى الثاني وانضووا تحت لوائه لتحـرير الوطن من قبـضة المر ينيين ،ثم لتكون على غر ار الصفوف التي انضمت للأمير عبـد القادر الجز ائر ي الذي قام بعد قرون يقاوم المحتل الفر نسي.



المدينة الحاضنة :

قدمت سليمة إلى تلمسان مع بداية اندلاع الثو رة، و هذه المدينة لم تكن في الحقيقة غر يبة عنها فهي مكان ميلاد والديها، فو جدت نفسـها تشـارك سكانـها جميعا حز نهم في ذكر ى اغتيال الد كتور الشهيد بن عودة بـن زرجب الذي مات تحت التعذيب الشديد، والتنكيل الر هيب الذي مارسته الشرطة

الفرنسية عليه. لقد كان حدثا أليـ[illegible] بعظم الأسى قلوب الناس على اختلاف أعمارهم.

*

في قلب المَدْرَسْ



منذ بداية شهر يناير من سنة ١٩٥٧ وجوّ الأحياء الشعبية للمَدْرَس مكهرب، والسبب هو الإعلان عن الإضراب العام الذي أضحى الموضوع الوحيد الذي تتناقله الألسن جميعا، فلا حديث في الأزقة والشوارع والبيوت إلا عليه، ثمانية أيام كاملة من الإضراب في جميع ربوع القطر: دليلا دامغا لتضامن الشعب وتلاحمه مع جبهة التحرير (FLN)، و جيش التحرير الوطني (ALN).



لقد كان الناس يتكهّنون أن الفرنسيين سيقدمون على اقتراف الأسوأ في حقهم، علما أن عساكرهم قد حملتهم حكومتهم المسؤولية بشكل حازم حاسم للحفاظ على الأمن في تلمسان والجزائر وعنابة وفي كل جهات القطر.



أيقنت سليمة بسرعة أن الأحياء الشعبية هي الأمكنة الملائمة لإيجاد سلاكة للجبـــــــهة، فكانت كثيرا ما تُطيل المكث أمام المتاجر عَلّها تحصل على معلومات قابلة لتو جيهها.

لقد كان حديثها مخصصا في غالبه عن ذلك الإضراب وبأقوم أسلوب يجعل أوامر الجبهة تحقق نجاحا باهر ا، وهذه نفيسة كانت تستمع إليها وتنصت بانتباه بالغ حتى تتأكد من جهوزيتها للالتحاق والانخر اط في المقاومة. لقد كانتا كلتاهما تعتبر ان هذا العمل من أشرف الواجبات وأنبلها، وعلى كل مواطن الوفاء بما عليه اتجاهه في الحين وعلى عجل ودون تر دد.

كانت سليمة تغتر ف كل يوم معلومات جديدة، والسـؤال من أين كانت تغترفها؟ كان شغلها الشاغل الإبـلا غ عن الإضر اب والغاية منه، فكانت لا تكتفي بتبليغه لذويها وحدهم، بل تبليغه إلى كل من تر ى فيه أنه يحمل بـين جنبيه حبا للوطن والغيرة عليه. لقد كانت تشر ح لهم أن الإضر اب سـلمي يحتضنه أناس لا يحملون شـيئا في أيديهم، أناس مجر دون من أي سـلاح. فكانت كلما لاحظت أو سمعت مَنْ ير دد ما يقوله الفر نسيون مِنْ أنه غير ذلك، أصر ت بقوة أنه غير ما يدّعون، وأنــهم يذيعون في الناس الإشاعات

ليبرروا لأنفسهم أمام العالم مسبقا ردود افعالهم العنيفة تجاه الأهالي حال حدوث الإضراب.

أرادت نفيسة أن تبدي لسليمة ما تجتمع عليه أفكارهما وتوافقهما العميق حيال الإضراب والقضية الوطنية، فقررت إظهار وجهها الحقيقي لها وموقفها الطبيعي من نشاطاتها. كان ذلك ذات مساء حين ألقت إليها نظرة من طرف خفي صاحبته بهز رأسها طالبة منها أن تلحقها، ولما لحقتها دلتها على المدخل المزدوج للبيت الذي كانت تقطنه بحي القلعة الواقع في أعالي ثكنة "بدو". ومن إفشاء إلى إفشاء من طرف نفيسة عن مواقفها وما تكنه في صدرها، علمت سليمة علم يقين أن نفيسة تنتمي إلى شبكة فدائية تمدُّ المناضلين المكلفين بالعمليات داخل المدينة بالسلاح والذخيرة.

الآن وقد علمت سليمة ذلك فقد انشرح صدرها وارتاحت ارتياحا لا يمكن وصفه، فقد وجدت ما كانت تبحث عنه منذ زمن بعيد: سلاكة للمقاومة والنضال.

والمقاومة. وتمسكهم بجبهة التحرير الوطني، القوة التي لا يمكن فصمها مهما كان جبروت المستعمر وبطشه وتنكيله.

في تلك اللحظات العصيبة قدمت الشاحنات العسكرية محدثة بمحركاتها حسيسا لا يطاق يكاد يثقب طبلات الآذان. وبمجرد أن توقفت تلك



ثكنت بيدو.











الشاحنات أنز ل الجنود الأهالي بعنف وقسوة وهم

يصرخون فيهم بأصوات عالية:

- انز لوا، أيها الأوغاد !
- بسرعة، هيا بسرعة أكثر!
- الحقوا متاجر كم رغم أنفكم!
- ستعلمون من له الكلمة الفصل!

علاوة على ما كان يلفظه الفرنسيون من الكلام الجار ح، عمدوا إلى إرغام المارة على فتح المتاجر وإن كانوا غير مالكيها بغرض تكسير الإضراب وإفشاله. لقد طالت الاستفز از ات، والقدح، والسباب، والشتائم، والتهديدات رغم مختلف أعمار المضربين، الشباب منهم والكهول، حتى الشيو خ لم يؤبه بهم، و لم يشفع لهم كبر سنهم.

أمام تلك التصرفات المتجردة من كل ما هو إنساني، رضخ البعض والتحق بمتجره أو حانوته، أما من أخذته العزة بعصيان المستعمر، وأملت عليه نفسه

وقائع الاثنين ٢٨ يناير 1958:

أقبلت الدبابات كأنــــها وحوش حديدية تشق طريقها ببـــطء في الأزقـــة مُحدثةً صوتا شديدا يصم الآذان ويهز البيوت القديمة للأحياء الشعبـــية، ، وكان بإمكان تلك الدبابات بسلاسلها الثقيلة أن تقـــضي على كل ما هو حي، وكان من بداخلها من الجنود لا يظهر منهم إلا الرؤوس يُخيَّل للمرء كأنــــهم مخلوقات أسطورية من عالم آخر خرجت مباشرة من الجحـــيم. نصفهم آدمي، ونصفهم الآخر وحوش حديدية

كان السكان الذين تطل نوافذهم على الشوارع الرئيسية للمدينة يتابــــعون بغير اندهاش تحـ[illegible]كات صفوف جنود الجيش الفرنســـي عن كثب وهم يأخذون [illegible] جهة، ويحيطون بأي بقـــعة من الأرض يرونــــها مناسبة [illegible] لأي طارئ

وكان الع[illegible]ون بجانب الأشجار، ملمحين بذلك أنــــهم قد يكونوا عرضة لرصاص قد يطلق عليهم من أعدائهم، إمعانا منهم في نشـــر ادعاءاتــــهم أن الإضراب ليس ســـلميا وإنما تظاهراته ســـــتكون عنيفة، يساعدهم في ذلك الصحـــفيون الذين كانوا يحملون آلات التصوير لتمرير ادعاءاتــــهم الكاذبة.

كانت خطوات المظليين الثقيلة هي الأخرى تدك الأرصفة المبلطة دكا، محدثة جلبة قوية كأنـــها ضربـــات على طبـــول. وكان أولئك المظليون يحملون أسلحة بحزم وفي تمام الاستعداد لإطلاق النار على أهداف معينة.

كانت أصوات متكررة تملأ الآذان تكاد تصمها، تاهت عقـــــول الناس في معرفة مصدرها، وأثارت فيهم شتى أنواع الاحتمالات والتساؤلات قبـــل معرفة حقيقتها.

لقد كانت ضربـــات قـــوية لجنود معهم هراوات ومطارق وآلات أخرى يحطمون بِـــها بغيظ شديد وحنق عظيم الستائر الحديدية للمتاجر وحتى الأبواب الخشبية الغليظة للحوانيت الصغيرة، مخر[illegible]ا حوت بداخلها من سلعة مخزنة، رامين ومبـــعثرين إياها على الأرص[illegible]ركلات من أرجلهم بعنف، ومدخلين المارة من المواطنين إلى داخل تلك المتاجر والحوانيت وهم يسألونـــهم بأصوات مرتفعة هائجة وإن كانوا ليسوا أصحابـــها.

ظل الجنود الفرنسيون على هياجهم وحنقهم يعيثون في المتاجر والحوانيت الفســـاد، ويحطمون الســـتائر الحديدية تحطيما بمطارقـــهم التي كانوا يرفعونـــها إلى الأعلى ثم ينزلون عليها بحركات جنونية، متلفظين بـــألفاظ نابية جارحة يشتمون بـــها الناس وقـــد أرهقـــهم صمودهم، وتحديهم

الثائرة الأبية تخطّي عتبة متجره أو حانوته.

زقاق للأحياء العتيقة بتلمسان



فكانت الضربات تنهال على كتفيه وصدره بواسطة عقب البنادق بكل شدة وقسوة، ثم يساق إلى الشاحنة ويحمل عليها ليقتاد إلى مخفر الشرطة المركزي وإلى مخافر أخرى لتبدأ معهم قصة المستعمر المستبد: التعنيف اللفظي، ثم التنكيل بأجسادهم وتعريضها للعذاب الأليم.

كانت تلك المشاهد الوحشية يتابعها المواطنون مِن على سطوح ونوافذ منازلهم، فيتألمون لها أيما إيلام مُكوِّنة في حلوقهم غصصا مرة، ومُؤجِّجة في صدورهم نيران غضب ملتهبة.



مضى النهار وأقبل الليل وخيم الظلام على الطريق المؤدي مباشرة من حيِّ القلعة إلى حي باب الحديد، فلا أنوار إلا ما كان يُرى من



بعض البيوت المضاءة بأضواء خافتة تدل على مدى بساطتها ووضاعتها، ولا أصوات تنبعث منها إلا ما كان يصدر من الصحون حين احتكاكها ببعضها. يظهر أنها كانت بين أيدي عائلة اجتمعت تحتسي منها الحساء.

أما خارج البيوت، في الطريق الرئيسي للحي، فقد مر رجلان يرتديان جلابتين، تغطي طاقيتاهما جبهتيهما بالكامل. كانا يمشيان ويلتفتان وكلهما



حذر كأنــــهمــ ...ان شيئا لا يحبذان ملاقاته.

وإذ هما على تلك الحال بين الحذر والترقب، إذا بصوت محرك يضطرهما إلى الاختباء وراء جدار في قلب مضيق بــعيد عن الشـــارع الرئيســي، ولما ابتعدت السيارة واصلا السير في اتجاه بيوت الأحـياء العتيقـــة المؤدية إلى ساحة أبي بكر ليوقفا حركتهما ويتسمرا أمام باب بيت نفيســـة، ثم يطرق أحدهما خشبها



الدخول، ثم توقفا قليلا لَمَّا أبصرا سليمة أمام عتبة الغرفة التي كانا يقصدانها.

تدخلت نفيسة قائلة:

- إنّها سليمة، إنها منا.

- السلام عليكما، نفيسة هي التي حضرت لي هذه الزيارة. قالت الفتاة.

انبسطت أسارير وجهي الزائرين، وردا السلام عليها وهما يحنيان رأسيهما



قليلا. ثم قال أكبرهما سنا:

- السلام عليك. أهلا بك بيننا.

بعد أن دخلوا جميعا إلى الغرفة أبـــان ضوء خافت وجهي الر جلين اللذين راحا يتز عان عنهما جلابتيهما التقليديتين السميكتين، ثم ما لبـــثا أن أخر ج كيسين خِيطًا بعناية فائقة، ومحفظة جلدية في وسطها رسائل.



• أماكن [illegible] آل أبو بكر

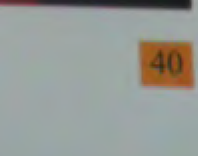
مَدّت نفيسة [illegible] إلى بساط صنع من الحلفاء، وهي تنظر إلى سـليمة التي بدت مضطربة قليلاً، ثم أزاحته عن باب أرضي في وسط الحجرة.

أدخلت نفيسـة يدها في الكيس الأول ثم في الثاني فأخرجت من كليهما قنابل كانت مخفية فيهما، أما سليمة فقد تسمرت في مكانـها مندهشة. فلم يسبق

زقق للأحياء العتيقة
بتلمسان

لها أن شاهدت قنابل عن قرب، إنها المرة الأولى في حياتها، وبعد أن انجلت عنها الدهشة أمسكت بتردد قليل قنبلة وأخذت تتحسسها وترجحها بيدها كأنها تريد معرفة حمولتها القاتلة.

راقب الرجلان سليمة وهي تفعل ذلك بشيء من





التسلية ... تعودا على مثل هذا حين كانا يحضران مجيء الجدد من المنخرطين في المنظمة الفدائية لقد كانت مثل صبية صغيرة أمام شيء هائل جذاب.

بعد صمت لم يطل طويلا قال أصغر الرجلين

- إنها المرة الأولى...

فأجابته الفتاة الصغيرة بشفتين مرتعشتين لصادقه







رسم لها. إن هذا الاسم لم يكن عندها مجرد هبة،
بل كانت تعتبره نعمة كبرى وفضلا عظيما منَّ
الله تعالى به عليها. فليست هناك مصادفة في
اختيار هذا الاسم لها، و لم يعط لها سدى. فاسم
(نعيمة) الذي صارت تحمله مشتق من النعمة
كما كانت تظن. ولإيمانِـها العميق بـهذا
الاستنتاج الذي وصلت إليه، استطاعت أن
تألفه بسرعة، وتتخذه ملاذا تشعر فيه أنـها
بعيدة عن عالم المستعمر المحتل الذي طالما كان
يضايقـها ويضغط عليها، بل إنـها كانت
عندما تنطق وتردد (نعيمة) ينفث في روعها
انطباعا يجعلها تشعر أنـها قد ملكت شيئا يملأ
أقطار روحها بسعادة لم تشعر بـها من قبل.
لقد صار اسم نعيمة موطن سليمة السعيد،
وعالمها البهيج، موطن كله تناسق، وعالم كله
انسجام مع ما كانت تصبو إليه وتحلم به: أن
تكون محاربة تحمل روحها على كفيها هِبَةً
للوطن



الأحياء التي كانت نعيمة
تنشط فيها





لقد أصبحت [illegible] الآن تعر ف مهمتها.

– أنت مكلفة بالاتصال، قال لها أكبر الر جلين سنا بحضور نفيسة. من الآن

أنتِ وصيلة، عاملة اتصال .

وعندما سألته عن مهمتها بالتدقيق، أجابَــها قائلا:

– القيام بتموين خلايا الفداء المتمر كز ة في المدينة بالسلاح .

***

ر الأيام والأسابيع أضحت
تشعر بثقل المهمة التي ألقيت
على عاتقها. فتلمسان مثل سائر مدن
القطر الجزائري أصبحت محاطة
تُرصد كل حركة فيها. فالعدو حاضر
في كل مكان. فقد تعددت وجوهه
وتضاعفت، من حرس بلدي، إلى
مظليين تعددت عناصرهم ومهامهم،
إلى درك مكلف بالمقاطعات والأقاليم،
إلى قوات الأمن الداخلي، دون عدّ
المبلغين والمخبرين وذكر أولئك القتلة
البشعين مجرمي الليل الذين كانوا يطلق
عليهم (اليد الحمراء).



لقد كان الوضع صعبا جدا. فكل خلايا
الفداء التي أرسيت في الأحياء
المسماة بالمَدْرَس، القرّان الصغير،
القرّان الكبير، الرحيبة، بو سِيجور،
الرياط لحمر، الحرطون، القلعة أو شارع
باريس،

كانت تقابلها القوات الاستعمارية التابعة لإدارة المدينة، فما من حـــي، أو مسكن، أو درب، أو زنقة، أو مضيق الخ ،لا يمكن التنقل منه إلى آخر إلا بعد المرور بحواجز وضعتها الشرطة. ولا يتم ذلك المرور إلا بعد تفتيش دقـــيق، الكل فيه سواء: المرأة والرجل، والشاب والطفل الصغير.

إزاء هذا الوضع الصعب كان لا بد من إيجاد حل للإفلات من هذه الفخاخ، وإفشـــال المخططات والأجهزة الاســـتعلاماتية التي وضعها الحكم الاستعماري، كانت تجتمع نعيمة ونفيسة وفدائيات أخريات في أي منزل كان أو حمام، بذريعة الاحتفال بعرس أو مرافقـــة عروس إلى حمامها الأول كما جرت العادة وتقضي التقاليد.

*

طيلة سنة ١٩٥٧ [illegible] رمي نفسها في أحضان شبكات المقـاومة، كانت نعيمة تعمل جنبا إلى جنب مع نفيســـة. فلا الأمطار الساحـــية، ولا الثلوج المتراكمة، ولا الرياح العاصفة التي كانت تخص السكنات البسيطة بعصفها الشديد، ولا حرارة الصيف الخانقة الحارقة التي كانت تسبـــب الحرائق في الغابات الكثيفة التي تحيط بتلمسان، كل ذلك وأكثر لم يكن ليمنع الفدائيات

من القيام بمهامهن وإنجازها بشجاعة نادرة، وتحمُّل قَلّ له نظير.

ذات ليلة أخبر مناضلٌ نفيسةَ بحضور أحد المجاهدين، فظلت تنتظر الإشـــارة المتفق عليها وهي أربع دقات متفرقة على الباب الثانية لسـكناها، في تلك اللحظة التي كانت تنتظر الطَّرق على الباب، ساورها الشك وهي تنظر إلى الخارج من النافذة في سيارة مرت ثم وقفت في أعلى الطريق.

لم يكن لدى نفيسة الوقت لتتساءل عما سـاورها من شـكوك تجاه تلك السيارة، ولم تمر إلا ثواني معدودات حتى سمعت تلك الإشارة تُسـمع على الباب، فأسرعت نحوها لتفتحها، وبعد أن ترددت قليلا ممهلة قلبـــها الذي كان يخفق بشدة حتى يهدأ، فتحت الباب، فانبسطت أسارير وجهها بعد أن تعرَّفت على المجاهد الذي قدم لها نفسه.

أدخلت الفتاة الشابة ال[illegible] وكانت ال[illegible] [illegible] تمطر مطرا بـــاردا لم ينقطع منذ يومين، وأغلقت الباب وهي تلقي نظرة خارج البـيت. في تلك اللحظة سمعت صوت محرك ينطلق من الطريق الذي توقفت فيها السـيارة التي ساورتـــها الشكوك حيالها فتفاجأت وسألت الرجل:

- هل أنت متيقن من أنك لم تكن متبوعا من أي أحد؟

لم تتم نفيسة سؤالها حتى سمعت طرقا شديدا يهز باب بيتها:

- افتحوا الباب، الشر طة!

مر ت ثواني معدودة كانت كافية لأن ير يها الر جل ما يجب عليها فعلــه، فقال لها بصوت منخفض:

- لا سبــــــيل للهر ب في مثل هذه الحالات. لكن يجب عليك أن تكملي مهمتك.

- لكن كيف؟

- قولي لهم إنني اقتحمت باب البيت عنو ة حين فتحتِها، وأنني قد هددتك بالسلاح الذي أحمله.

قال ذلك، ثم أز اح معطفه و أر اها السلاح الذي كان معه.

دخل أربعة من الشر طة بدينين جسام بيت نفيسة شاهر ين أسلحتهم نحوها ونحو المجاهد، ثم دخل أحدهم مسرعا إلى الغر فة الأقرب مصوبا مسدســه كأنه يواجه [illegible] حقيقة، في حـــين كان المجاهد يهيم بـــنظره عن وجوه الشر طة [illegible] تصدر منه أي حر كة.

- لا يو جد أحد هنا. قـــال الر جل الذي قـــام بـــتفتيش الغر فة الأخر ى الموجودة في الرواق الضيق للبيت. جُرِّ د المجاهد من السلاح ثم غُلَّت يداه وراء ظهره دو ن أن يقوم بأدنى حر كة

ضد الشرطة التي طلبت من نفيسة أن تطيع أمرهم وتتبعهم منذ أن أخذ المجاهد مكبّلا لم يسمع عنه أي خبر. أما نفيسة فقد سئلت عدة مرات متكررة عن معرفتها واتصالها به وسبب وجوده في بيتها، فكانت تنكر معرفته أو أي اتصال لها به. وأنه رجل غريب فتحت له الباب فاقتحم بيتها عنوة وتحت تهديد السلاح، معقبة على ذلك بقولها:

ـ ماذا بمقدوري أن أصنع في مثل هذا الوضع؟ ضعوا أنفسكم مكاني.

أنقذت تلك الكلمات التي لقّنها المجاهد نفيسة حياتَها، فلم يمر إلا أسبوع على احتجازها ثم أطلق سراحها.

لكن مع ذلك ظلت مُلاحَقَةً مُضا[illegible] فلم يكن بإمكانها التن[illegible] إلى أي مكان إلا ويتبعها شر[illegible] ويحقق معها [illegible]حا إياها أيما إحراج.

ضاقت نفيسة ذرعا [illegible] تلك [illegible] المحرجة المقلقة ولم تعد تتحملها ولا تطيقها، فعزمت [illegible] تلمسان والرحيل إلى المغرب الأقصى.

وهذا الأمر هو الذي جعل سليمة تكون بديلة نفيسة في شبكة الفداء.

*

في ذلك اليوم من شهر فيفري من سنة ١٩٥٨، توجهت بعض النساء اللواتي كُنَّ يرتدين الحايك الأبيض إلى أعالي حي سيدي شاكر، قاصدات حماما

بالقرب من السور القديم المؤدي إلى باب المحجرة كانت الشمس تشق السحب الداكنة التي غطت السماء طيلة الصباح قبل أن تغزو سيدي شاكر، لتنتشر بعد ذلك على كل الضواحي وتنبسط بأشعتها على الأسطح الملاصقة للحمّام

أفاضت تلك الأشعة بوهجها ودفئها الناعم الحياة داخل البيوت التقليدية، وأذهبت بعض الفتور عن الأهالي والمدينة

كما أنها سنحت ببروز مروحيات الجيش الفرنسي في أديم السماء التي اقتربت من البيوت القديمة [illegible] قلوب الصغار الذين راحوا يصرخون ويبكون وأمهاتهم المرعوبات هن الأخريات يضممنهم إلى صدورهن، ويحاولن إسكاتهم برفق وحنان

في تلك الأثناء [illegible]يمة أن توصل البريد إلى قادة شبكات الفداء، وكان عليها [illegible] الأسلاك الشائكة التي كانت تفصل أعالي سيدي شاكر عن المنطقة التحتية لباب الحديد.

استطاعت نعيمة أن تجتاز الحاجز بدون صعوبة بفضل المساعدة التي قدمتها لها حويزة التي كانت تصغرها بسنة وتربطها بها أواصر القرابة

لم تكن تلك المساعدة سهلة ميسورة، لقد كانت في الواقع في أشد ما تكون

تصوره من الخطورة، فالأمر يتعلق بنقل القنابل. لذلك كان على خوير ة أن تلجأ إلى الحيلة وتضع القنابل في المر كبـة الصغير ة تحت الصبي شوقـي ثم خرجت من البيت، ومضت تدفعها بكل هدوء مما أزاح من ذهن الشـرطة كل شك ، وهم الذين كانوا ير اقبون بأعين نسر كل صغيرة وكبيرة . وكل موقف فيه أدنى شبهة من حر كة. أو تر دد في مشـية أو تصنع فيها. أو تحر ك مباغت. أو إدخال يد في جيب ثوب. كل ذلك بعد تفتيش دقيق، وتحقـيق واف لمن يشك في أمره.

عندما وصلت خوير ة إلى الحاجز الشائكة أسلاكه كأنه [illegible] شيطان. انحنى شرطي أزرق العينين له لحية عظيمة على الصغير، ثم مد يد[illegible]خمة صوبه كأنـــّها يد دُبّ، وبكل لباقة ورزانة وهدوء نفس، وصبر كبير، وحكمة فائقة وقفت خوير ة أمام الشرطي الذي ما لبث أن سحب يده عن الصغير، وهو يبتسم ابتسامة افترت عن أسنان شديدة البياض.

مرّ ت خوير ة بالمعبر الضيّق بين كتلتين من الأسلاك الشائكة. ثم تنفست الصعداء وواصلت طر يقها حـيث كانت تنتظر ها نعيمة غير بـعيد عند الحمام.

طارت نعيمة فر حا حين رأت خوير ة مقبلة نحو ها وهي تدفع المر كبة وفيها



الحمام المدعو حمام بر بكسي
أين كانت تلتقي عاملات الاتصال إبان حرب التحرير

سلاح مطيمة المفضل

الولد الصغير، بعد أن اجتازت لفة الأسلاك الحديدية التي تشبه جسم وحش حديدي.

اقتربت خويرة من نعيمة، وحين رآها الصبي شوقي وعرفها مَدَّ إليها ذراعيه، فمدت إليه يداها ثم رفعته من مركبته الصغيرة وقد انهمرت دموعها على خديها بغزارة وفي ذهنها تخيُّل رهيب، لو أن الوحش الفرنسي الأشعر اكتشف أمر القنابل التي كانت تحت الصغير... ولو... ولو... حين وصلت نعيمة إلى الحمام وتخطت عتبته، وجدت بانتظارها ثلاث بنات في مقتبل العمر كُنّ قد سبقنها إلى المكان، فقبلتهن الواحدة تلو الأخرى، بينما نزعت خويرة الحايك وجلست على كرسي خشبي تلتقط أنفاسها.

أشارت نعيمة للبنات الثلاث أن يلحقن بِها إلى

مكان خفي عن الأنظار كانت قد خصصته لهن صاحبة الحمام. لحقت البنات بها ولم تكن اثنتان منهما قد نزعتا حايكاهما تماما. لقد كان يبدو عليهما شيئا من التوتر، وعلى جناح السرعة أخرجتا كيسين من نسيج كتان كانتا قد أخفيناهما في



تنو رتـهيما الداخلية ووضعتا فيها المتفجر ات التي أتت إليهمـا بـهـا نعيمة. ثم شددناها بحز ام حول خاصر اتـهما. أما البنت الثالثة فقد وضعت لها مسدسا ومُشْطِين في سلة مصنوعة من الحلفاء تحت تكويم من البطاطس والجز ر واللفت. فما إن انتهت نعيمة مما كلفت به حتى انطلقـت البـنات الثلاث يخرجن من الحمام.



وسط دار تقليدية

وقبل أن يفترقن قالت سليمة لأحدى البنتين اللتين معهما المتفجرات توصيها بدقة بالغة:

– حذار! فالإشعال ليس له إلا وقت قـصير جدا، أقل من خمس ثو ان، وليس بوسعك إلا ثلاث ثو اني لإلقاء القنبلة بعد اشتغال مشعل المفجر. ثم لا تنسـي أمر ين اثنين تكونين فيهما في غاية الحذر: أولهما حين تلقي القنبلة جِدي لنفسك مكانا آمنا لا تصل إليك فيه الشظايا. ثانيهما، لا تلقي القنبلة على العدو إلا بـعد أن تتأكدي من خلو الطر يق من المارة حتى لا تسببي لهم الجرو ح.

ثم التفتت إلى البـنت الثانية وأعطتها وثائق مكتوبـة دو ن أن تدلي لها بـأدنى تعليق، أو تعطيها أقل التعليمات.





انطلقت المناضلتان بعد زمن لم تتعد مسافته العشر دقائق، بعد أن أخر جت نعيمة بـر يدا صادر ا من القـائد الذي تخضع له يطلب فيه من البـنات الالتحاق بصفوف الجبـهة لإمداد الفر يق الطبي بالمساعدة في المخابـئ المجهز ة لذلك في قـلب الجبال.

ذات مساء:

كان على نعيمة أن تتصل بإحدى المناضلات في المدّرس. فكان عليها أن تعبر ساحة النصر أمام النصب التذ كاري للأمو ات، الواقع وسط الفضاء الخالي المقابل للمدرسة الابتدائية. أبطأت نعيمة قليلا في مشـيها لتتأمل ما جاء في تلك الكتابة: "تلمسان - لأبـنـائها الذين ماتو ا من أجل فر نسـا ١٩١٤- ١٩١٨"-


وسط دار تقليدية

هزت نعيمة رأسها وقد صدمتها

بعض التناقضات المثيرة للعجب. فما

صدر من نعيمة وهي تحرك رأسها

متعجبة من تناقضات فرنسا، هو

نفس الشعور الذي يتقاسمه مو

اطنوها جميعا اتجاه فرنسا في مكرها

وخبثها. إنها طعنة في الظهر كما

يقولون عنها كبار السن.

إن الجميع لا يزال يتذكر كلمات

الحاكم العام الفرنسي المعسولة

عندما خاطب الجز[illegible] المسلمين

مستغلا مشاعر هم [illegible] ورغبة [illegible]

في الزج بهم في [illegible] فرنسا ضد

الخطر الألماني، قائلا لهم: "إن نبيكم

العظيم يقول: إن الله لا يحب الخائنين"

ثم واصل ليتود (LUTAUD) يقول: "

إن الألمان يجهلون هذا القول الرباني



العظيم ، ويظنون أن الجز ائر يين سيخدعون فر نسا وهم يتلو ن كلام ربـــــــهم ". هل هناك من نفاق ووقاحة أكثر من هذا ؟ أن يستغل المستعمر إيمان المستضعفين البائسين المضطهدين المستَعمر ين لكسب ولائهم والموت من أجل بني جلدته؟

ثم أخذت نعيمة تر دد: "تلمسان لأبنائها الذين ماتو ا من أجل فرنســا" هل الجز ائر يون أبناء فر نسا حتى يُقــبِلو ا على الموت من أجلها ؟ ما أعظمه من تناقض.

ماذا تعني هذه الفترة 1918 - 1914 لبنت سنة ١٩٥٨؟ إن التاريخ يبين وجهه الحقيقي. على تلمسان تخليد أبنائها البررة وتمجيدهم أمثال بن عودة بن



زرحب، والممرضات الشابات اللواتي قتلن في جبال سبدو في ليلة من ليالي شتاء ١٩٥٧ ومعهن مصابو الحرب الذين كُنَّ تعالجهن.

كانت نعيمة غارقــة في أفكارها، فإذا بـامرأة تظهر أمامها. لزمت كلاهما الصمت ولم تنبسا ببرهة من الزمن ببنت شفة واحدة، تنتظر ان سـكوت صوت جهنمي لمروحية كانت تطوف في السماء. وبين الحين والآخر كانت تمر سيارة شرطة مسرعة تصرخ كأنــها وحش جريح، والمارة يفسحون لها الطريق ملحقين أنظارهم بـها.

دون أن تكشف المرأة وجهها، اقتربت من نعيمة ثم قــالت لها بـدون أدنى تمهيد:

- عليك أن تغادري المدينة فورا! فاسمك من الآن فصاعدا في قــائمة المطلوبين المبحوث عنهم.

ثم خطتا معاً خطوات وواصلت تقــول لنعيمة تخبرها أين [illegible] وكيف عليها أن تلتقي برجل سيذهب [illegible] ج المدينة ويدلها على العمل الواجب عليها القيام به.

حينها فكرت نعيمة في [illegible] ستجابـــهه، فتراقــصت في ذهنها أفكار عديدة، وافتراضات كثيرة. فقبـــل أيام كانت على دراية بمستقبلها تعلم ما تفعل، وتبذل طاقاتــها بجهد عظيم دونما تردد أو تلكؤ. فمغادرة تلمسان، يعني أنــها لن تعود عاملة اتصال، ولا عضوا في شبــكة الفداء، ويعني أيضا أن



النصب التذكاري للأموات

عالمها الجديد، إن مر كل شيء على أحسن حـــال، هو
جيش التحـــرير الوطني. ثم تســـاءلت: أليس هذا الذي
كانت تبحث عنه في بداية أمرها مع المقاومة والكفاح؟
اتســـعت عينا نعيمة وهي تذ كر هذا التســـاؤل،
وانبسطت أسارير وجهها، ربما لو جود ارتياح يكون قد



في زقق تلمسان العتيقة



في زقق تلمسان العتيقة

غز ا نفسها حين [illegible] الجبل. وجاء اليوم الموعود: يوم الالتحاق بالجهاد، حيث سيُفتح للشا[illegible]جديد في حياتــــها النضالية، فصوت الماضي ما هو إلا استجابة لنداءات المستقبل، والتحليق بالأجنحة بين أزقة وجدران حي الزيانيين ستتسع أجو اؤه في فضاءات أوسع بين الوهاد والوديان والجبـــال والقرى والمد اشر، مما سيخلصها تماما من نير حضر التحول الحر وج الذي

كان يَحُدُّ من تنقلاتِـــها خصوصا أثناء الليل . ويتيح لها أكبر فر صة

لحر ية الحر كة وأخذ زمام المبادر ة كلما شــاءت ومتى شــاءت

وأينما شاءت في القتال والجهاد.

*

جبل رأس الموتى ،(ضواحي تلمسان) ١٩٦٠

لقد كان المكان مشجَّر ا بأشــجار البـلـو ط الأخضر والفلين على امتداد البصر، تر افقه صخو ر عظيمة في بعض الأحــيان تملأ العين سحرا وجمالا، يز يد من سحر ها وجمالها احتكاك أشعة الشــمس ونزول سوطها عليها بقوة فيكشــف عن تر كيبــها الأردواز ي الجميل الأخاذ بالقلوب والعقــول.إلى جانب ذلك كانت ثغر ات تضيق مر ة وتتسع مر ة محفورة في السلسلة الجبلية الضخمة المتربعة على المكان بكل شموخ واستعلاء، والتي كانت تأوي إليها بــعض الكواسر التي تسكن في نو احيها بعد أن تملأ بــطونَـــها شبــعا من جماعات الحيوانات التي كانت تعيش هناك بوفر ة كبيرة. وبمحاذاة ذلك كانت حيو انات أجبر ها القــصف الف[illegible] الهمجي على العيش هناك حين كان ير مي بحمم قنابله من [illegible] مطاردا جيش المجاهدين ومحاو لا إخر اجهم من تلك الأماكن المشجر ة إلى أماكن

مكشوفة ليسهل عليه ضربَــهم وقصفهم، مما أوقع في تلك الحيوانات القتل الشنيع بكثر ة تدل عليها بقايا جثثهم المتفحمة المتفر قة هنا وهناك فأضحت طعاما للجوار ح والكواسر .لقد كان الدمار شاملا عَمّ المكان بأكمله إنساً وحيوانا ونباتا، دمار ينم عن حقـد أعمى، وقسـوة لا يمكن وصفها لذلك المستعمر. في ذلك المكان المشجر كانت وحدات جيش التحرير تجوب طولا وعرضا، ذهابا وإيابا دون أن تخر ج إلى العراء تصاحبهم في تلك الحر كة نعيمة التي أصبحت تتأقلم مع المكان، وتتكيف مع وضعه العام الج[illegible] عليها.

* * *

كانت الطائر ات العسكرية حين تأتي وتحلق في السماء تُحد[illegible] رجّات مهولة يخيَّل للمرء أنّـــها ستخلع قمم الجبال فتسقطها من أعاليها، فكانت تبعث في نفوس الأهالي الذعر والهلع فتصدر منهم نداءات الاستغاثات من شفة إلى



صف من المقاو[illegible]



أصداءً تصل إلى الداني

شفة ومن مكان إلى آخر. فيملئون بـذلك الجهات أصداءً تصل إلى الداني والقاصي تحذرهم خطر الطائر ات وقـصفها الخطر المميت. أما جماعات المجاهدين فكانت حينذاك تتو ز ع في صفوف قصيرة سرعان ما تتسلل إلى المخابئ. وعندما كانت تمر أسـراب الطائر ات (ت ٦) تمشـط جذريا الضواحي فتقذف بقنابلها عليها. كانت تُر ى في تلك الضواحي سحبـا تنبعث منها أعمدة دخان سوداء تر اها الأعين من بـعيد ومنها عين نعيمة. فتُدرك أن الخر اب قد نز ل بذلك المكان ولم تعد فيه حياة. [illegible] كانت تلك السحب الد كناء تلف المكان فتصل إلى حيث كانت نعي[illegible] رفاقها في الجهاد فيدفعها ذلك إلى وضـ[illegible] على فمها وأنفها حـتى [illegible]ـكنها أن تتنفس وهي لا تز ال [illegible] اف الطائر ات القاتلة بـعيدا عن المكان. وسماعها [illegible] هاب الخطر والنجاة من الهلاك



سليمة [illegible] مع رفيق في المقاومة



إن ذلك الانتظار العص[illegible]ي المخابئ كان في بعض المرات يطول زمنه، وكانت نعيمة ومَن معها من المجاهدين لا يدرون هل تكتب لهم الحياة من جديد أم سيصيرون إلى عالم الأموات. وحين يسود الهدوء ويسيطر السكون على المكان يخرج المقاومون من مخبئهم مكونون صفا صغيرا، يعاودون السير





متقدمين بسرعة وبِحذر فتصدمهم مناظر هي بحق كوابيس: جثث مقطعة مفحَّمة، أطفال ونساء خرق أجسادهم الرصاص، أكواخ مُدمَّرة انهارت بعضها عل[illegible] رؤوس أهلها، حيوانات تفرقت أجسادها أشلاء هنا وهناك نتيجة شظا[illegible]جيرات، مناظر لا يمكن للنفس البشرية أن تتحمل رؤيتها، ولا يمكن أن توصف بشاعتها.

حاولت نعيمة إنقاذ ما يمكن إنقاذه من المصابين وتقديم الإسعافات الأولية لهم، بينما انصرف إخوتُها في المقاومة إلى إخراج جثث الموتى من تحت

منطقة جبلية في
نو احي تلمسان

الصخور، لقد بذلت نعيمة واجبها التمر يضي والإسعافي بكل ما في وسعها وفي قلبها مر ارة حز ن وألم كبير، وكانت في نفس الوقـــت ترقب السماء بعين يقظة خشية معاودة العدو غاراته من جديد، فمثل تلك الغارات قــد تحدث بمكر خبيث وإعداد دقيق من المستعمر. فكان من المحتمل أن تعود الطائرات من جديد لتضاعف من ضغطها وتمشيطها الجذري كما قررت قيادتـــهم العامة، وفي نيتهم هذه المر ة تدمير القرية على رؤوس ساكنيها الذين نجوا من الغارات السابقة بوحشية لا مثيل لها. وفي بعض الأحـــيان كان الأهالي المجاورون لتلك القرى المنكوبة [illegible] إلى مكان القصف لدفن الأموات، وإعادة بناء المخابـــئ، وأداء صلاة الجنازة على المتوفين، في حـــين كانت قطعان الغربان والعقبـــان تحوم في الســـماء مُصْدِرةً أصواتا تشي بعدم صبر على



منظر شامل لمدينة تلمسان

الجوع، وتنبئ عن اشتياق [illegible] أجساد مَن فُقدوا. فكانت تلك الأصوات تضيف الحزن [illegible] البائس القاتم اللون.

معركة:

في نفس المنطقة بين جبال راس الموتى وترِّني ستدور رحى معركة ضروس، ومواجهة دموية، فها هو ذلك الصمت الرهيب الذي كان يملأ المكان تمزقه



محر كات الشاحنات العسكرية، وأزيز الطائر ات المطاردة التي أفسحت المجال للطائر ات المقنبلة، فأمطرت الأرض بالقصف البربر ي العنيف مصوبة وابـــل طلقاتـــها على المضـ[illegible]ـذي لجأ إليه المقاومون. في حين توقـــفت شاحـــنات مغطاة لقوات الجيش [illegible]نسي ومعهن ثلاث سيارات مُجهَّز ات بأسلحة نارية أوتوماتكية صَوَّبت فوهات نيرانـــها على المجاهدين وكل ما يتحرك على



الأرض.

مُلئت السماء بالدخان الكثيف المتصاعد من ميدان المعركة حتى كاد يخنقها حين غزاها من كل الجهات. أما الأرض فقد مُلئت جراحا فألقت بأحشائها الممزقة بفعل الضربات العنيفة الموجعة. وعندما انقشع الغبار الذي كان يحجب الرؤية، ظهر للعيان حفرة كبيرة نتيجة انفجار القنابل، بينما تقطعت



هناك بعيدا أغصان الأشجار التي هوت على الأرض التي كسيت بالسواد الداكن، آخذة م[illegible]ـاش الطيور التي تناثرت أجسادها الصغيرة وتفحَّمت. كان يو[illegible]كة عصيبا على نعيمة، فقد أصابتها طلقة نارية لم تَدْرِ مصدرها، فمزقت ذراعها الأيمن، فآلمها ذلك إيلاما كبيرا، وشحب وجهها، وأصابها غثيان شديد، وتشكلت بعض حبيبات عرق واجتمعت

لتملأ جبينها. وأخذت تشعر بالأرض تفر من قدميها قبل أن يغمى عليها، ولم تعد إلى وعيها إلا بعد مرور مدة من الزمن في المخبأ الذي حملها إليه رفاقها.

كان أول صوت سمعته سليمة عندما عادت إلى وعيها صوت قائد الفوج الذي انحنى فرحا بفتحها لعينيها. كان التأسف العميق على ما حصل لسليمة باديا في نبرة كلامه، فالجرح بالغ يحتاج إلى علاج فعَّال، ولن يتأتّى ذلك إلا



بعد نقلها إلى مناطق الانسحاب بالمغر ب الأقصى فهمت نعيمة وأيقـنت أنـــها أصيبت إصابة بليغة. وأن جر حـــها خطير جدا أصبحـــت منذ أن أصيبت شاردة الذهن، مشوشة الخاطر تفكر فيما قيل (مناطق الانسحاب)، كانت هذه العبارة تضر ب رأسها بمطارق من حديد، فلم تعد تتحـــمل ما سيأتي به الغد. صحيح أن جر حها خطير يســتدعي التدخل العاجل. ولكن نعيمة لا يمكن أن تتصور نفسها قد بعدت عن المقــاومة ولو كانت مُكرَهَة على ذلك. وهي التي طالما تَمنَّت أن تساهم بـــكل ما أوتيت من قـــوة دون توقف لدحر المستعمر، والتضحية بالنفس والنفيس من أجل الوطن وحريته واستقلاله. كانت تتد كر زميلتها نفيسة و الأسى يغمر قلبـــها، فهل كان القدر قـــد كتب لهما أن تنسحـــب كلتاهما إلى المغر ب؟ هل الجر ح الدي أصابها ســيعني القـ[illegible] إرادتها و عز يمتها على المقــاومة؟ لكنها لم تستسلم كليا إلى تلك [illegible]. فهل يحق لها أن تعصي القـــدر؟ وكانت تنظر إلى قائد الفوج بنظر[illegible] ثاقبة لبضع ثو ان كأنـــها تر يد أن تقـــول له إنـــها تطيع خالقها. ولكن في عمق نفسها كانت تر دد في إيمان لا يتز عز ع: سأعود إن شاء، نعم سأعود.

المغرب 1961

بات بتر الذراع الأيمن ضروريا حتميا.

لم يكن نقل الشابة سهلا ولا مريحا. فقد كانت المسالك الممتدة على طول الحدود المغربية وسط سلسلة جبال ترارة الساحلية وعرة جدا، وكذلك أيضا كانت فتحة مغنية التي شكلت طرقها المعبدة وسككها الحديدية خطرا فعليا. لكن كان هناك ما يتيح الحركة ليلا بشـــيء من الأمان والاطمئنان. إنـــها تلك الكتل الجبلية الضخمة الممتدة على طول المنطقة الحدودية على ارتفاع ١٥٩٠ م خاصة كتل جبال المشـــاميش [illegible]. كانت نعيمة شديدة الانزعاج والقلق وهي على ســـريرها بالمستـــشفى، ليس على حالتها الصحية ولا الحال الذي آلت إليه، بـــل إزاء تلك الأحـــداث التي كانت تشهدها الجزائر. لقد كانت نعيمة تتلقى أخبـــار تلك الأحـــداث وتلتقطها أذناها وقت راحة الأطباء، وهم يتحـــدثون عن أوضاع الوطن وما كان يمسُّ جيرانَـــهم من قِبل المستعمر، فكان ذلك يؤثر في نفوســـهم تأثيرا بليغا. كما علمت سليمة أن شعارات جديدة ظهرت و كُتبـــت على جدران العاصمة مثل المنظمة المسلحـــة الســـرية (OAS). ومع مرور الأيام تواردت أخبار أخرى بعضها أثقل من بعض مما زاد حـــزنـــها عمقـــا ودعرها ذعرا كبيرا يهيجه عدم تحركها بسبب إعاقتها. لقد وقع المئات

المنظمة الفر نسية السياسية العسكر ية التي نشأت في العاصمة ثم انطلقت لتمتد في جميع ربوع الوطن. طيلة فتر ة نقاهتها ظلت نعيمة تفكر في ألف طريقة تُمَكّنها من العودة من جديد إلى أرض الوطن لتو اصل كفاحها فقد تحدّثت إلى أطبّائها وأبدت لهم حماسا مُذهلا جعل حدود المستحيل أمام ناظر يها تندثر. لقد أخذت على عاتقها العناية بجسدها الجر يح فقامت بكل همة ونشاط تستعد لمر حلة جديدة في حياتها كما لو أن بتر ذراعها لم يعد أبدا عائقا.

العودة:

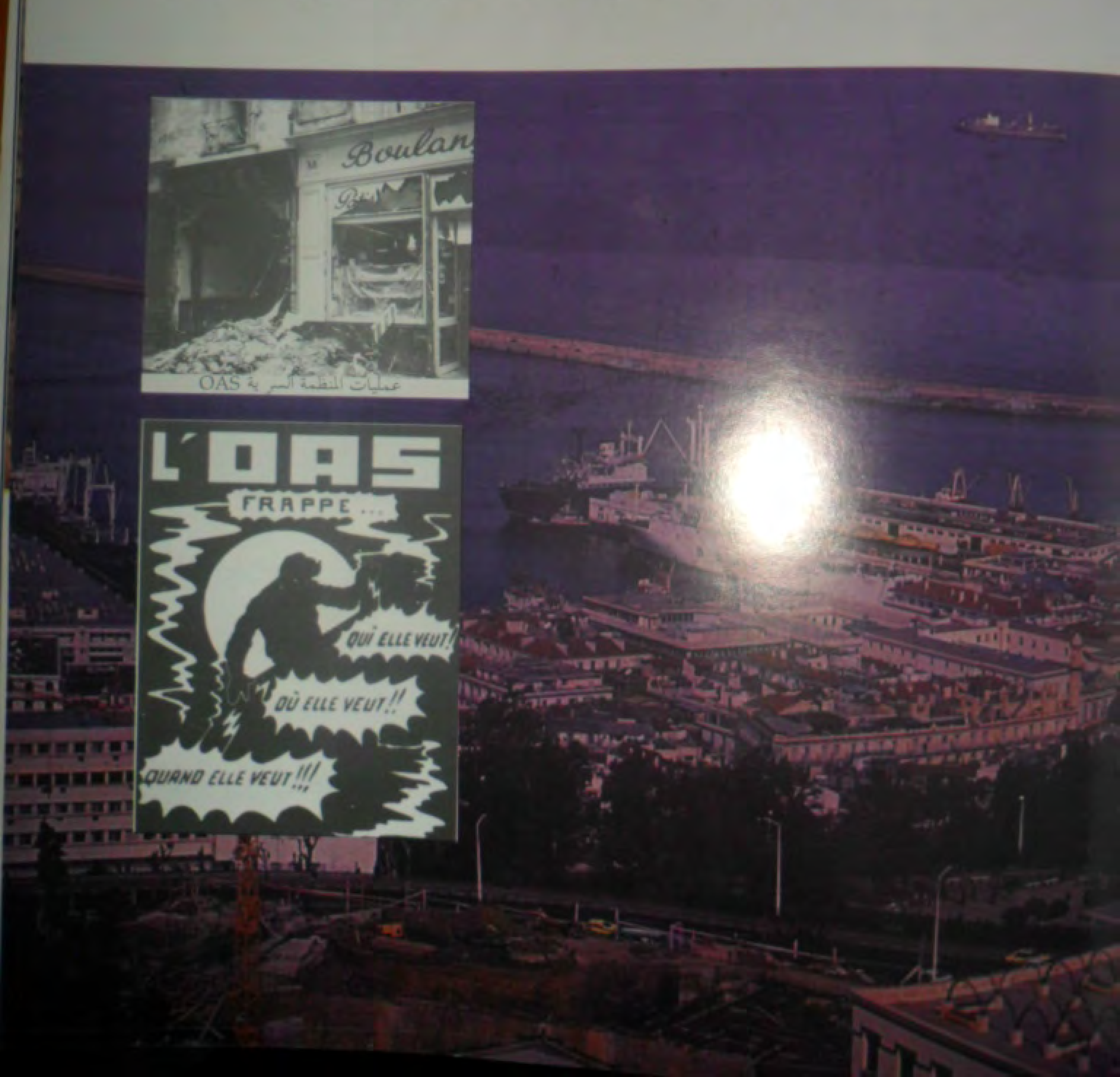
لم يكن أبدا من اليسير على أفر اد جيش التحرير الوطني الذين كانوا في فتر ة تر بص في [illegible] حدة اختر اق الحاجز الذي أقامته السلطات الاستعمارية لمنعهم من [illegible] الأراضي الجز ائر ية. علمت سليمة عن طريق الضباط المشرفين على هذا التكوين أنه منذ سنتين قد نصبت المدافع الر هيبة المصادة للطائر ات الكفيلة بإصابة الهدف على بعد سبعة عشر كيلو متر، واستعملت من طر ف الو حدات الفر نسية المر ابطة منذ سنتين بالحدود بالقر ب من جبال تلمسان، المنطقة المر تادة من قبل أفواج المجاهدين. كان ذلك النوع من السلاح الر هيب مدعّما ببطاريات القذّافات ذات ٧٥ دق، ومدافع

الهاون ذات ١٢٠ دق، و بمناسبة زيارة الرئيس الفرنسي في الخامس من شهر مارس سنة ١٩٦٠ إلى مراكز الحراسة للحاجز، سُلّم سلاح أشد فتكا. لقد كان ذلك الحفل رمزيا للغاية، فقد حضره إلى جانب الرئيس جميع ضباط قطاع مغنية الذين اعتلوا ربوة جعلتهم يرون سهل وجدة كله. لكن ذلك لم يكن ليثني عزيمة نعيمة ولم يثر في نفسها ذرة من خوف أو تردد على العودة إلى الجزائر. فما إن تماثلت للشفاء حتى انطلقت ضمن وحدة صغيرة من المقاومين راحت تتجنب كشافات الأنوار القوية للمراكز المكلفة بضمان إنارة المنطقة المحرمة طيلة الحراسة الليلية أقصى شمال الحاجز.

أوائل أيام مارس عام ١٩٦٢

عادت نعيمة إلى الكفاح [illegible] ان عليها أن تكيّف جسدها من جديد مع المشي المتعِب عبر الجبال الكثيرة الحصى. لقد كانت راضية بسريرها المفروش بالأوراق اليابسة وسط الغابة، مكتفية ببعض البسكويتات، أو بقطع من الخبز البائت، وجرعات من الماء، وبقليل من الزيتون أو ثمرات برية. راحت نعيمة في المخابئ تسخر معرفتها بالتمريض والاعتناء بجرحى الحرب، وبالأطفال الذين أصيبوا بطلقات نارية أو الذين أحرقتهم الطائرات

المخابئ فقد كانت تُعِدُّ الكمائن مع رفاقها في الكفاح، وتضع الديناميت في القناطر التي كانت ترتادها السيارات الثقيلة لسلاح المدفعية. لَكَمْ كان إعجاب وانبهار الجميع بسليمة وهي تقوم بتلك الخدمات والأنشطة في منتهى ما يمكن أن يوصف من الإصرار، وبذل أقصى ما يمكن من التفاني في الخدمة والعطاء! تقوم بذلك كله ورشاشها ٤٩ لا تبرحه ولو لحظة واحدة.



عمليات المنظمة السرية OAS



لقد غدا هذا الرشاش حين تَضُمُّ عَقِبَهُ إلى جسدها سلاحا في وجه أي شعور بالعاهة والنقص بفقدان العضو المبتور منها. لقد أصبح يبعث في نفسها نوعا من الضمان والصرامة والثقة، بل أضحى أكثر من ذلك يكسبها نوعا من الشجاعة والبسالة تثأر به لتلك الطلقة النارية التي أطلقت عليها ذات يوم فكانت سببا في إعاقتها.



كانت الأيام تمر على سليمة فما كانت تزيدها إلا إصرارا على التضحية ووضع الروح على ال[illegible]شد النصر أو الالتحاق بالموكب الطيب، ركب الشهداء، فلا الآلام الت[illegible]ها، ولا الظروف العصيبة التي عصفت بها استطاعت أن تفتح ثغرة ولو بحجم ثقب الإبرة تتسلل عن طريقها إلى إرادتها تنقص منها شيئا، بل كنتَ تراها كعادتها صارمة حازمة تبعث فيمن حولها من



رفقاء السلاح قوة العزيمة والبذل بشـ[illegible] الدهشـة. يُرى ذلك من عينيها اللامعتين ببريق صاف [illegible] الصدق والإخلاص، كما يُرى ذلك من سماء وجهها المنبسط الأسارير على الدوام يبصر فيه الرائي ما بداخلها من رضا بالحال، واستقرار في النفس، وارتياح في البال.

*



طلع الفجر وانتشـ[illegible]ـعة الشمس تملأ قمم جبـــال تلمســـان دفئا وتطارد بقوتها وكثافتها ر[illegible]ـر طوبـــة التي جثمت على ذلك البســـاط الأخضر الأخاذ لر اس الموتى، وتلك المساحات الواسعة لجبال ترِني الكثيرة الحصى التي نضدت عليها شتى أنواع الشجر، ومختلف النبـــاتات ذات الشـــذى المنعش للنفوس. كان الصمت مهيمنا على أجواء تلك الجبال، فلم يكن يمزقه إلا شدو

العصافير، وصَفٌ سريعٌ لأجنحة طيور، وتو اشيح تغر يد وزقز قـــة آخر ين

هناك في تلك الجبال الشامخة في مغارة تحت نتو ء صخر ي ثابت أين هيِّئ مخبأ.

أحاطت نعيمة وثلاث ممر ضات أخر يات ببعض جر حى الحر ب كان قــد

جيء بهم البار حة. فلم تكن إعاقتها لتمنعها عن أداء مهمتها، بل راحـــت نعيمة

تبذل قصارى جهدها في إسعاف أولئك الجر حى، وتقديم ما يمكن تقديمه من

خدمة وعناية.

وراء الجبال والتلال، قبل منتصف النهار بقليل، انطلق صوت محر كات يملأ

المكان، وما هي إلا دقائق معدودات حتى علت أديم الســـماء الصافي الأزرق

أطياف مر وحيات كثير ة بشعة أخذت تمارس عملها الفظيع الباعث للأســـى

والحز ن، جائلة في الأجو اء كأنها كوارس تبحث عن فر ائس، ثم حـــطت على

مساحة واسعة لأرض مستوية تسمح ب[illegible] مدججين بـــكل أنو اع

الأسلحة و أفتكها، ما لبثت صفوف منه[illegible]وا المغارة يحاصر ونها منعا

لكل مجاهد يحاول الخر وج منها، ثم بعد هنيهة وضعت بـــطاريات قـــذافات

75للجبال، ومدافع الهاون ١٢٠ دق من على المر تفعات.

*

في داخل المغارة كانت نعيمة ورفقاؤها يستعدون لتحمل ومكابـــدة هجمة

من أشرس الهجمات الدموية، وقتل في أبشع صوره وأقساه سيشنه العدو بعد



مغارة حيث جهز مخبأ للمقاومين



اهتز ت المغارة وكأن زلز ال ير جها بكل قو ة وعنف

لحظات، بينما أسـر ع الحارس الذي كان يقـف ع[illegible]حل ليختفي في المغارة حين رأى المروحيات حتى لا تترصَّده عيون الجنود الفر نسـيين، ثم وقف وراء صخر تين بينهما ثغر ة يتتبع تحر كات العدو محا ولا كشـف إستراتيجيته وخططه.

فجأة غادرت المروحيات الأرض لتبدأ حين علت في السماء بإطلاق نيران كثيفة إيذانا بالهجوم العام على المغارة تؤ ازرها في ذلك القـذّافات ومدافع الهاون وأسلحة أخر ى.



كانت فو هات النير ان كلما رمت بما حُشيت أُتبِعت بـــأصو ات شـــيطانية للقوات الفر نسية تحث على ال[illegible]يد من الر مي ودك المغارة بمن فيها دونَمَا رحمة أو رأفة، حتى إن أرر[illegible] تَهتز وكأن زلز ال يَر جُّها بكل قوة وعنف، فكانت حجارة مدخلها [illegible]ير في السماء قطعا قطعا مكونة غبارا كثيفا غز ا المخبأ وجعل هواءه صعبا تنفسه. نتيجة لهذا الوضع العصيب كَفَّ الجر حـــى عن الأنين ونسوا جر احاتِهم وصبوا اهتمامهم على ما حلَّ بِهم والمآل الذي ينتظر هم. فلا منفذ يمكن التسلل من خلاله فالمظليون الفر نسيون يمكثون غير

بعيد عن مدخل المخبأ ينتظرون كل من يجر ؤ ويخر ج ليصب عليه وابـــل الرصاص.

كانت القذائف تسقط دون انقطاع بحقد أعمى أسكر الجنود الفر نسـيين وأخر جهم من آدميتهم وصيَّر هم وحوشـا ضارية، يغذي ذلك الحقـد حرب سبع سـنوات: جر ح كبريائهم أناس لا يملكون من السـلاح إلا خفيفه وأبسطه، وهم الذين لُقِّنوا واستقر في قر ار ة أنفسهم أنّهم لا يُغلبون ولا يُهزمون ولا يُقهرون. لكم كان الغيظ يغلي في قـلو بهم على خصمهم المختبئ داخل المغارة وإن كان لا يُر ى ولكنه الآن هو محاصر. ولكم كانوا يأملون رؤيته وقد قُطِّع إر با إر با عسى أن يذهب ذلك شـيئا من غيظهم، ويشفي قليلا من غِلّهم.

أما الممر ضات الثلاث إز اء ذلك الو ضع الر هيب [illegible] حـــافظن على هدوئهن ومضين يحاولن إسعاف الجر حى الذين تدهو رت حـــالتهم إثر الانهيارات التي حلت بالمخبأ. بينما أمسكت نعيمة بذراعها الذي بقـي لها سلاحها، رشاش ٤٩ الذي يز ن أكثر من أربعة كيلو غر ام وأفر غت ٣٢ رصاصة من مشطه لتعيد طلقاته طلقة طلقـــة. لقـــد كان إطلاق النار من رشاشها صعبا عسيرا أحـــدث لها آلاما لا تطاق فضغطت على شـــفتيها السفلى حتى إنها أدمتها.

بعد مر ور ساعة هز ت سلسلة انفجارات الأرض فجعلت جدران المخبأ تتهاوى، تبع تلك الانفجارات إلقاء قنابل قوية بشـــكل كثيف أنهت عملية الهدم. سكت صوت السلاح، و بعد أن حلقت المر وحيات ككاسر يبحث عن طريدة، حملت طاقمها البشع وعُدَّةَ الموت لتر حل وتختفي وتعود من حيث أتت، تار كة وراءها سحب دخان وغبار غطى الجبل ما لبث أن أخذ في التبدد والز وال من وجه السماء.



بضعة أشهر بعد الاستقلال

قاد القرويون الذين تابعوا من بعيد ما حدث في المخبأ، فرقة من الجنود الشباب الذين أرادوا إزاحة الصخر عن مدخله. وبعد جهد دام نصف يوم أخرجوا جثامين أحد عشر رجلا، وثلاث نساء. أخبرت السلطات العسكرية بعضا من أقرباء نعيمة للتحقق من هوية الضحايا، فجيء بهم إلى المغارة، فتعرفوا على ابنتهم. اعتصر الألم والأسى قلوبهم، واغرورقت أعينهم بالدموع وفاضت بحرارة على خدودهم. وقفوا طويلا ينظرون إلى الشهيدة وهي جاثية على ركبتيها ممسكة بشدة على رشاشها 49 دون أن ينبسوا بكلمة واحدة. قطع الأقرباء الصمت المهيب الذي هيمن على المكان وقرروا أن لا ينقلوا ابنتهم وأن تبقى دفينة الجبل. فالشهيدة كانت من عُشّاق الجبال من أجل الجهاد ومقارعة العدو، فلطالما كانت تتنقل بين مركز لجيش التحرير الوطني ومركز آخر تؤدي مهمتها النبيلة على أحسن ما يحب الوطن ويروم. وكان لها ما أرادت.

كان المشهد مؤثرا للغاية، زاد في تأثيره تلك الكلمات الأخيرة التي نطقت بها شفاه أقرباء الشهيدة: كانت هذه الجبال بالنسبة لابنتنا أماكن أليفة احتضنتها، فلا أَلْيَقَ بمكان يكون قبرا لجثمانها منها، ولا أَلْيَقَ بقبر لجثمانها من هذه المغارة.

1942-1959

مليحة حميدو



ونحن نعبر بمحاذاة مسجد سـيدي إبـراهيم المصمودي، وَالجِين طريقا ضيِّقا مؤ ديا إلى دار الحضانة، نكون قد بلغنا طر قات معقدة ضيقة ودروب بلا مخر ج ولا منفذ، توجد في قلبها دار الضوء. بعيدا عن تلك الدروب تنفر ج مساحة من الأرض واسعة مغطاة بأعشاب برية قصير ة قد تسلقـت بعض عر وقها بجسارة الجدران القديمة، وخلفها تظهر باب من أبواب تلمسان المهيبة العتيقة المسماة بـاب الحديد. في وسط ذلك الحي العتيق المحفوف بأشجار باسقة مصفوفة



بعناية فائقة وطريقة متناهية الروعة، ولدت أشهر بطلة شباب تلمسان التي جسدت البطولة النسائية في أروع صورها وأسمى معانيها: مليحة حميدو. وما لابد من معرفته أن هذا الحي العتيق قد غنّى عنه الشاعر الكبير أبو عبد الله محمد ب. يوسف القيسي التلمساني في القرن الرابع عشر. وقد ضم هذا المنشد الشهير إلى



مسقط رأس الشهيدة.
المضيق لشارع باريس المؤدي
إلى أعالي باب الحديد



ذلك المكان صورا بديعة عن النبلاء المدافعين عن القضايا العادلة في بعض قصائده الشعر ية، والتي منها قوله:

> أنت، أيها الزائر، اقصد باب الحديد،
> وانظر إلى تلك الجماعة من الرجال،
> الفرسان النبلاء بنو عبد الواد،
> الأسود بحق في فن الحرب،
> الشجعان في الدفاع عن الحق والعدل.



وحتى يمكننا إعطاء صورة حقيقية لأولئك المحاربين المقدامين الجر يئين، هناك شاعر من تلمسان من القرن الثامن عشر يسمى بن سهلة يبرز بيتين من الشعر يخلدان جمال فتيات تلمسان للقصبة الزيانيةالقديمة:

> أنت أيتها الجميلة ذات الأهداب الصافية
> المتجولة في الشوارع الصغيرة لباب الحديد
> محظوظ سعيد من وجدك.

إننا ونحن نقرأ هذا الشعر المعبر المو حي بعفة تلك الشابات الباسلات ذوات


الحاج عبد الحميد حميدو

الأهداب الصافية، أفلا يمكن أن نتصور أن من بينهن وجدت بعد قرون بطلة حـرب التحـرير الوطني؟ ألا ما أعجب أمر الحقيقـة التي تخطت الأزمان وطاولت القرون لتعبق من الأنفاس القوية الجر يئة لأولئك الجند الباسلين بنو عبد الواد، ويسلم بعدها سيف القضية العادلة لشابة من حي بـاب الحديد و هي في ربيع العمر، لم تبلغ سن السابعة عشر، الجر يئة مليحة حميدو.

أب مثالي:

ولدت سنة ١٩٤٢ ... الحر ب العالمية الر هيبة، فقدت أباها وكان عمر ها تسع سنو ات، ولم تر وجهه للمر ة الأخير ة حين أسلم الروح لبارئها، ذلك لأنه مات في الأراضي المقدسة حين حج بيت الله الحر ام عام ١٩٥١. لقـد كان الحاج عبد الر حمن حميدو رجلا مثقفا مولعا بطلب العلم ونشره، ولعل أبرز ما قدمه لأبنائه وللثقافة الجز ائر ية ككل ذلك الكتاب النفيس المسمى

- السعادة الأبدية -خص به أبا مدين، ذلك العالم الر بـــاني الز اهد الو ر ع الشهير، أب تلمسان الر وحي والصوفي الأكبر والأشهر في المغر ب العربي .

كما أنه كتب عن الحي العتيق المشهور العبّاد ، وكذلك عن المدرســـة التي لا تزال قائمة إلى يومنا هذا، هذه المدرسة التي سبق لها أن استقبلت العلامة الكبير والمفكر العظيم ابـــن خلدون. وخص في صفحـــات أخر ى بشـــيء من الإسهاب والتفصيل معنى التصوف وحقيقته، مضمنا تلك الصفحات الكثير من الأشعار جمعها للو لي الصالح كان قد نظمها.

إن ذلك الو الد كان قد هاجر إلى الشرق الأوسط سنة ١٩١١ مع عائلته وتعلم اللغة التر كية، وحين عاد إلى الوطن التحق بمدرسة تلمســـان، والثعالبـــية بالعاصمة، ثم كلية الآداب بـــنفس الحاضر ة، كل ذلك أكسبـــه همة عالية، وفضولا ثقافيا جعله يتر جـ[illegible] كانديد - للكاتب الفر نســـي فولتير إلى اللغة العر بية، جاعلا [illegible]ـها، هذه المر ة باللغة الفر نســـية، الكثير من الأشعار المأخوذة [illegible] الجز ائر ي.

إن هذا الوسط الثقافي المفعم بحب العلم والشغف بنشره كان لا بد أن يشيع في نفس الفتاة شوقا عظيما إلى سماع كل ما يتعلق بـــذلك الصر ح العظيم، صرح المعر فة والعلم. فما من أديب مشهود له بالأدب بحق ، كما كان يقول الحاج عبد الر حمن لأولاده وأهله ومن يحيطون به، إلا وقد عر ف





المكانة المرموقة لهذه المدرسة في العالم الإسلامي خلال القرون الوسطى. فكبار العلماء والمفكرين والأدباء والفلاسفة نهلوا من معينها، من أمثال ابن خلدون وأخيه يحيى، أضف إليهما أبناء المقري.

ومن جميل ما ترك الوالد الحاج عبد الرحمن، تلك النصوص الرائعة التي ذكرت التحاق الولي الصالح أبي مدين بجند القائد العظيم صلاح الدين الأيو[illegible] بنفسه في المعارك الع[illegible] الأراضي المقدسة من أيد[illegible]ين ومن والاهم، وكذلك ما تعلق في تلك النصوص بالروابط الحميمية والأخوية التي جمعت أبا مدين بتقي الدين، أحد أقرباء صلاح الدين. كانت

الكلمات التي شملتها تلك النصوص التي تفيض عظمة ، تتلقاها نفس الفتاة الصغيرة مليحة بكل شغف وإكبار، فلا تزال تتسلل إلى أعماقها حتى تستقر فيها، وتظل محفورة في ذاكرتها منقوشة في قلبها، ثم تصنع لها موقفا صارما تجاه الأوضاع المزرية التي كان يعيشها مواطنوها تحت الهيمنة الاستعمارية القاسية، ودافعا لها إلى اجتياز هذه المرحلة البغيضة تأسيا بأولئك المحاربين البسلاء من جند صلاح الدين الذي ملأ ذكرهم صفحات التاريخ، وشهدت لهم الأجيال المتعاقبة بالإقدام والشجاعة كما كان يقص عنهم والد مثالي.





مدرسة لليقظة :

في أروقة مدرسة دار الحديث كان محمد بابا أحمد، مساعد المدير محمد صلاح رمضان، لا ينقطع عن الحركة هنا وهناك، فالمدرسة كانت دوما تحت مراقبة السلطات الفرنسية لا تكاد عينها تغفل عنها في وقت من الأوقات، وبين

الهيبة والأحرى كان الرجل يبادل الكلام مع المدرسين مختار حبان ومحمد مثلو كلاه أما المدرّسة فتيحة مرّاد التي كانت تخشى اقتحام العساكر الفرنسيين للمدرسة، فراحت تأمر تلميذاتها بالدخول إلى القسم والتزام مكانهن، وكذلك فعلت زوليخة إبراهيم عثمان التي كانت مليحة ضمن فوجها. إن القاعة التي كانت تدرس فيها الفتاة الصغيرة لا تزال تزن حيالها بصوت مدرستها بكلمات لها أكثر من تعبير استطاعت مليحة أن تعيها أكثر من زميلاتها حين اطلعت عليها لأول مرة في المجلة الجزائرية

- البصائر -: "سأكون من بين أولئك النسوة اللواتي يناضلن من أجل القضية النبيلة، سأخوض مقاومة شرسة ضد كل من يحاول منعي من مواصلة طريقي نحو هدفي، سأضع كل ما أملك من غال ونفيس وحياتي لاجتياز هذا الطريق [illegible] أنت أيتها الظلمات الحالكات! إني آمرك أن تطوي سدولك! فقد أقبل [illegible] ار الفجر وعلا صوت الواجب ولا صوت يعلو عليه، فما عليك إلا [illegible] حلي! أنت أيها الظلام لقد عقدنا العزم على محاربتك بسلاح العلم والمعرفة استجابة لأوامر الشعب ونداء الإسلام".

هذا النداء لم يكن إلا صدى صوت مؤسسي جمعية العلماء الجزائريين الذي ملك على المعلمين الأحرار قلوبهم وعقولهم في كل شبر من أرض الجزائر الطاهرة.

على جدران دار الحديث علقت بين كل رفين من رفوف مكتبتها صورا لوجوه جزائرية تجسد كل منها بعدا مهيبا من الشخصية الوطنية.

أما في ذاكرة اليتيمة الصغيرة، ففي كل زاوية من قلبها، وفي كل نفس يصعد من صدرها، وفي كل كلمة تنطق بها محدثة بها زميلاتها، لم يكن إلا ذكر وتذكير بأولئك الفرسان الأشاوس وما من أثر عظيم في حياتهم بما قدموه من جهود وتضحيات.

ومثل هؤلاء الأبطال لا يخلو منهم زمن من الأزما[illegible] فهي تجدهم في تلمسان الحالية، فيمن كانت تعاصرهم من أمثال محم[illegible]ح رمضان، وفي محمد بابا أحمد، وفي محمد ملوكة، وصلاح رزوقة، [illegible]حة مراد، وخديجة خلدون، وزوليخة إبراهيم عثمان، وعبورة زهية.

بنت حساسة :

من الصعب جدا أن تكون مراهقة زمن الحرب وهي تحمل بين جنبيها أحلاما في مثل العمر، وكيف يحلو لها هذا الزمن من العمر وهي التي كانت كلما خرجت من بيتها وقعت عيناها على ما ينغص عليها جمال طفولتها: متسولون حفاة تعج بهم الطرقات وهم يمدون أيديهم طلبا للصدقات، وجماعات من الأهالي يتركون قراهم ويلجئون إلى أعالي

البيوت القصدير ية، هذه البـيوت التي ما من صورة من صور البـؤس إلا وجدت لها تجسيدا بين أرجائها في داخلها وما حـولها. ويز يد بؤسـها فظاعة حين يقبل الشتاء وقسوة برودته، فكانت النسوة يحملن أطفالهن بين ذراعهن وكذلك كبار السن المفجوعين في عيشـهم المصدومين الهائمين على وجوههم يطر قن الأبواب عسى أيدٍ رحيمة تمن عليهم بقطعة من الر غيف، وإناء فيه حليب للصغار. إن شتاء تلمسان طويل قاس على الأهالي، فلما كانت ثلوجه تغطي بيوتهم البائسة والمدينة بأكملها و تثقل ثقلا على أكتاف المحتاجين، فكانت الفتاة الصغير ة المر اهقـة تتسـمر وراء النافذة وتسر ح ببصرها في الأرجاء المحيطة بالمتر ل، فتر ى أدخنة المدافئ تتصاعد من بيوت المستعمر ين فتتذ كر حال مواطنيها أهل وطنها فيحز في نفسها ما هم عليه من الشقا[illegible] متسـائلة: أليس هذا الظلم بـعينه أن يعيش الأهالي وهم السكا[illegible]ليون لهذا الوطن معيشة ضنكى كلها فقر مدقع، وبؤس مفجع، في حين يعيش المستعمر ون الغز اة الآتون من وراء البحـار حياة رغد ورخاء لا حدود لهما. لقـد كانت صغير ة في منتهى البراءة مما جعل الألسن تتساءل في حـيرة واندهاش من أين كان لها تلك القـوة التي جعلتها بعد سنة تلقي قنابل يدوية على العدو المدجج بالأسلحة الذي كان يُطَوِّق المدينة من كل الجهات بطوق من حديد؟

أولى سنوات الجمر:

كانت الفتاة الصغيرة تحمل في نفسـها ما اختلط بلحـمها ودمها ثقـل السنوات الثلاث الرهيبة من حرب التحرير الوطنية، لقد كانت طالبـة في الثانوية في ريعان شبابها، ولكنها كانت تحمل في عقلها عن قـضية وطنها وقيد المستعمر الفرنسي وقبضته الحديدية المؤلمة ما قد يفوق وعي الكهول، ففي السنة الرابعة عشر من عمرها عاشت الأحـداث العنيفة لأيام متوالية عرفتها مدينة تلمسان إثر القتل الجبان للدكتور بن زرجب، فلم يكن ذلك الحدث الأليم وتلك الأيام العصيبـة العنيفة تمر دون أن تحفر في وعيها ما يحفزها أكثر لبغض المستعمر والثورة ضده.

في ذاكرة مواطني الحاضر قـد تمر تلك الأحـداث وتتراءى أمام أعينهم وكأنها فيلم يعرض ببطء. وقـائع غارقـة في أ[illegible] مؤلمة امتص الحاضر آثارها من الماضي قبل أن يعيدها بكل اتساعها و[illegible]ها المأسـاوي لمجرد استدعائها وطلبها من الذاكرة كما تستدعى و تسترجع الآلام و الجروح العظيمة.

إننا حين نتحدث لآباء قدموا الشهداء لهذا الوطن نجدهم لا يرون أن هناك خطا يفصل الماضي عن الحاضر. فلا الماضي يمكن أن يتلاشى و يزول وقت الاستذكار، و لا الحاضر أن يقصر في المعاصر و الحالي، فالمدة، حتى و لو



سدها، نكتشف حينها عدم استقرار وعدم ثبات حاضر تلتهمه ذكرى مليئة بالحزن، مشبعة بالعبرات والدموع، أنفذ وأقوى من أي وقت مضى.

فالسنوات الحقيقية للحرب لن تكون معاصرة إلا لنفسها، في حين أن الشخص المحبوب الغالي الذي فقدناه يبقى يعيش للأبد في حافظتنا، فليس

هناك من حي أكثر من ذلك الدي يسكن و يقيم في الداكرة.

الوقائع الأولى للحرب :

استيقظ الأهالي على الأصو ات المصمة لمحر كات الطوافات، رافقتها زمجر ة الدبابات التي أحدث هلعا رهيبا في نفوسـهم، وقلقـا مخيفا جعلهم يتساءلو ن عن المكان الذي تقع فيه المأساة، و الأمر المؤ كد أن الأسلحـة المضادة للطيران هي تحمل الأجوبـة بلسـان الحر ب الفصيح: لا يهم أين ستكون المأساة، ما دمتم جميعا شبابـا، كهولا أو شيو خا، نساء أو رجالا تتعاطفون أو تقدمون يد



المساعدة للثوار، فكلكم هدف لنيراننا، وكلكم بلا استثناء تستحقون العقوبة، الموت.

لقد عاشت بلدة بودغن وامتداداتها نحو القلعة أصعب أيامها وأرهبها. لقد ماج الناس بعضهم في بعض خوفا ورعبا يفرون في الدروب الضيقة الموحلة، لكن سرعان ما كان يقبض عليهم الجنود الفرنسيون ثم يجمعونهم حشودا محشودة على طول الطريق الرئيسي المؤدي إلى البلدة المذكورة. كل المساحات الممتدة من البيوت البائسة الفقيرة ذات السطوح الزنكية المتزعزع، إلى الطرقات المعبدة، هي مطوقة بقوات الأمن الداخلي.

من على سطح منزل آل حميدو كان بإمكـ[illegible] ـدة أولئك البؤساء الذين كانوا يظهرون [illegible] ـن الهرب عبثا أمام وحدات الجيش [illegible] ـضى يتقدم تقدما حثيثا باتجاه البيوت المتلاصقة في [illegible]



الدكتور بنعودة بن رحب



أحياء تلمسان الشعبية

لقد كانت مليحة معلقة بذراع أمها تر اقب ما كان يجر ي حولها عن كثب، والدمو ع الغز ير ة تنهمر من عينيها على خديها، وغصة تملأ حلقها تكاد تخنقها وهي تتساءل بكل مر ارة وأسى في قرارة نفسها: أي ذنب وأي جر م اقترفه هؤ لاء الصغار الذين يفر ون من [illegible] سيدي شاكر يبحثون عن ملجأ يقيهم شر طلقات الر صاص [illegible] العسكر دون مبالاة منهم على أي الناس تسقط، استهتارا واس[illegible] بارواحهم؟

ظلت الطلقات النارية تسمع إلى وقت متأخر من الليل، وفي بعض الأحيان كان تستمر بلا انقطا ع، لقد كانت تلك الطلقات تجد لها صدى في صدر الصغيرة مليحة حتى كأنها كانت تختر ق جسمها، ليس لأنها كانت خائفة أو مرعوبة، بل لأنها كانت تتصور رعب أولئك النسوة اللواتي كن يُلصقن



صغارهن إلى صدورهن ويجر ين مسرعات هربا من العساكر الفرنسـيين وأسلحتهم الفتاكة. مر ت تلك الليلة العصيبة على السـكان وجاء الغد والفرنسيون لا يز الون يحتلون المكان، فبـدا للفتاة الصغير ة مليحـة كأن عددهم زاد على ما كان عليه بالأمس، فانفجر ت غاضبة وهي تقول: أما كفى ما نشر ته هذه الميليشيات الدموية البـار حـة من ذعر لا يوصف؟ ورميها بالناس في حالة من الفوضى لا تطاق؟

يقظة الضمير :



منحدرات ما بين حي بودغن و حي سيدي شاكر

بقيت مليحة في [illegible] مغلقة الباب عنها طيلة [illegible] غارقة في تأمل مؤلم فظيع لما يحصل لمواطنيها، و هي تتذكر تلك الحكايات التي سمعتها بشوق كبير، وإعجاب عظيم في دار

الحديث عن أولئك الأبطال البسلاء الذين ظلت صور بطولاتهم عالقة في ذهنها لا تفارقه، ربما كذلك لأن من بين أولئك الر جال العظام الجر يئين كان رجل اسمه الر ايس حميدو، آخر مشاهير قادة البحرية الجزائرية طيلة الحقبة التر كية في الجز ائر. لقد كانت تشعر بـــنو ع من الفخر الشـــخصي والزهو الذاتي لأنها تنتمي إلى سلالة الر ايس حميدو، وكم كان يسيئها ويغيظها تحويل السلطات الاستعمارية اسمها ظلما إلى اسم "حمَّادو" وهو غير الاســـم العائلي المتوارث جيلا بعد جيل.

وتعبيرا عن غيظها واستنكارها لما فعله المستعمر بـــاسمها العائلي أخذت تردد بصوت خفيض ولكنه كان يتردد على سمعها وفي صدرها كأنه الرعد في زمجر ته وقصفه: "اسمي حميدو مثل جدي الأول الر ايس حميدو، اسمي حميدو وليس حمادو كما يحب الفر نسيون وير غبون."

لقد كانت مليحة كلما رددت اسمها "حميدو [illegible] بسريان نشـــوة الاعتزاز والشموخ والز هو في نفسها، ويز يد نشوتها تذ كّر ها لتلك الكلمات التي قالها مدرس دار الحديث: جند شجعان لامعوا الذ كاء. رايس حميدو كان حارسا وحاميا لمدينة الجز ائر ضد تهديدات الغز اة الأوروبـــيين، كان صغيرا في الثانية عشر من عمره معجبا بـــالحياة البـــطولية للبحـــارين الجزائريين الذين كانوا يهيمنون على البحار، وحين بلغ أشده وأصبح يافعا أصبح قائدا بارزا، ورائدا



نصب تذكاري لرايس حميدو، القرن ١٩

لأكبر أسطول وضعه الداي حسن تحت إمرته سنة ١٧٩٧، معد ببحارة أشداء، ومجهز بعتاد مكين، استطاع سنة ١٨٠٢ أن يسيطر على سفينة حربية برتغالية مجهزة بـ٤٤ مدفع ، آسرا ٢٨٢ من بحارته، وعندما أراد أن يعبر مضيق جبل طارق الذي كان الأمر يكيون يحاولون السيطرة عليه وإدارته لوحدهم دون مناز ع، قرروا مقاتلته فأعدوا له سنة ١٨١٥ أرمادا بعشر سفن، فكان الجزائريون البو اسل يقاتل الواحد منهم عشرة، و نتيجة لتفوق العدو عدة وعددا فكانت النهاية أن قُتل أولئك البواسل الشجعان. جر ح الر ايس حميدو جر حا قاتلا، ولكنه قبل أن يسلم آخر نفس صاح فجأة



صفيحة لد كر ى الر ايس حميدو

بصوت عال، وكأنه يريد أن يفرغ فيه ما بقي له من قوة: "يجب أن نموت شهداء! يجب أن نموت شهداء! مادام النصر لم يحالفنا هذه المرة فلنمت موت المجد، ولا نترك العدو يقبض علينا أحياء! ولنمت شهداء!".

كانت الفتاة الصغيرة تردد الكلمات الأخيرة للشهير الرايس حميدو، متخيلة الحالة المأساوية التي وجد فيها ورفاقه وعيناها مسمرتان في المكان الذي كانت تنظر فيه وقد انبسطت أسارير وجهها وكأنها كانت تريد أن تمدهم بشعاع من الأمل وسط تلك الظلمات الحالكات التي كانت تحيط بهم يسري عنهم ما هم فيه، وهي تقول بين شفتيها: فلنمت شهداء.

حدث حاسم، ١٩ جانفي ١٩٥٦ :

كانت المدينة تت[illegible] [illegible]يحة فقدت أحد أحب أبنائها، لقد قتل بن عودة بن زرجب قبل ثلا[illegible] [illegible]ار ولد حليمة بسبدو.

لقد كان وقع خبر مقتل الطبيب الشاب بتلك الوحشية الشنيعة تحت التعذيب الرهيب على يد القيادة العامة للأركان الفرنسية شديدا على الفتاة مليحة، فظلت تحتفظ بذكرى مقتله وقد نصب بين عينيها كما علمت من بعد مشهد شموخه ورفعة جبينه وقد لطخ قميصه بدمه الزكي.



شارع فرنسا

لقد كانت تحمل صورة ذلك الرجل في سكون ملأ صدرها، جعلت منه نبراسا تهتدي به في دروب الجهاد [illegible] ومسالكه الخطيرة، سكون كان يحدثها طوال مدة مراهقتها. كل يوم كان صوت الرشاشات يتردد في أذنيها، وتلك الطلقات المتواصلة [illegible] كالكلمات تحكي ما يحدث لأهل مدينتها، وكان يبدو لها أنها تسمع طلقات الرصاص التي قتلت بن زرجب الذي أصبح رمزا أبديا راميا بثقله على روح وضمير الشباب في تلمسان بكل قوة وعنفوان. رمز لا ينضب معينه، كلمة قوية لا يمكن أن تخبو، فعالة مسموعة، ضاجة عندما يلزم الأمر، كلمة تشق طريقها إلى القلب مباشرة.

لم يكن ذلك اليوم من جانفي سنة 1956 يوم نحس أو شؤم بسبب مقتل مواطن من تلمسان، بل أضحى نشيدا للمجد وقّعت لحنه ونغماته تلك التضحية الكريمة لمكافح أبِيّ، لقد تُرجم ذلك اليوم إلى رمز لكثير من المراهقين والمراهقات صيّر هم أكثر نضجا ينشدون صنع الحدث البطولي في حياتهم. آه كم هو عظيم ذلك اليوم من تحوُّله من يوم مأساة إلى أنشودة بطولة، ونشدان التضحيات.

صار بن عودة بن زرجب رمزا، وهذا الرمز سكن عمق عقل مليحة: " إن صورته تلازمني"، قالت يوما لإحدى رفيقاتها دوجة. فرغم التعذيب الرهيب والتنكيل الشديد الذي لا يمكن تحمله أصرَّ على عدم الإخبار عن اسم واحد


عمارة ميليس
صورة قديمة

من أسماء أصحابه في الكفاح، و لم يخبر عن مكان اختبـائهم، و لم يعطهم أدنى خبر، بل تحدى العدو بشموخ، وتحدى حـتى الألم الذي كان يُقَطِّع جسمه، فلم يصدر منه ولو صر خة واحـدة، فأي عظيم هذا الصغير في عمره، الكبير في فعله وصنعه!



مدر سة سلان – صو رة قديمة



لقد كانت مليحة تر تحدي ذلك البطل في رفضه للحياة ما دام ماء عز وكرامتها قد جف بـــفعل سـلطة طاغية، كانت تراه أيضا في ذلك الوفاء للهدف المنشود من قِبَله وقبل أصحابه، أي تحر ير الوطن، وفي تلك القوة التي كانت تملأ جو انحه من أجل الحلم الدي كان ير غب إليه مواطنوه،

فكان كله في خدمة الحر ية ولذلك مقتله جعل منه بطلا ورمز ا يحتذى به.

خر جت مليحة ذلك اليوم من جانفي سنة ١٩٥٦ منضمة هي وطالبات الثانوية من أتر ابها إلى الجمع المحتشد لدفن الشهيد بن زرجب والجميع ير دد : "المجد للشهداء"، بينما اجتمع البوليس الفر نسي على أهبة الاستعداد الحربي لمواجهة الموقف بكل صر امة وحز م مصوبا سلاحه نحو الصفوف الأمامية لجموع المتظاهرين. اجتمعت الحشود في الجناح الر ئيسي لشارع فرنسا، الحي المو جود في أعالي المدينة والمحصور بين ساحتي الجز ائر ودار الكولون، بينما هناك خلف الجامع الكبير ينبسط الحي العربي.

اختارت الجموع ساحة الانطلاق وكأنها تريد استرجا ع منطقة اغتصبها


دار الحديث
صورة قديمة



مدرسة سلان

العدو: شار ع فرنسا الراقي بشرفاته المز دانة بـــالورود، وواجهات متاجره الفاخرة المشرقة بالأنوار والأبهة.

انضم إلى الحشود جمع من الطلبة هربوا من ثانوية البــنات لتضخيم صفوف التلاميذ الذي تر كوا كوليج سلان عن بــكرة أبــيهم، تار كين إياه خاليا خاويا. هناك بالقرب من الجامع الكبير، عند عمارة ميليس، حــيث وضعت الرشاشة التي سبق أن كان لها وجود منذ اندلا ع الثورة، تهدد باختراق أجساد جمع المواطنين الذي ما فتئ يز داد ويكبر في كل لحظة وحــين، تغذيه جمهرة كبيرة من طلاب الثانويات وتلاميذ المدارس.

كان الجو في ذلك اليوم صافيا مع أنه كان شـ[illegible]ـفي الذي عادة ما يكون ممطر ا، تعرَّق المتظاهرون بغز ارة، وتعالت أنفا[illegible]ـاعدت من صُدورهم المتميز ة غيظا. وفي لحظة غيظ تحولت إلى رغبة [illegible]ـام، قـــامت جماعة من المراهقين ير تدون ألبسة رثة يكسوها الغبار برمي واجهات متاجر المجوهرات ومتاجر أخرى يملكها المســتعمرون بــالحجارة، فتطاير زجاج تلك المتاجر وتناثر كحــزمات بــيضاء لماعة على الأرصفة. امتلأت الأرض بالســاعات الفاخرة، والأساور الذهبــية، والخواتم الفضية، والألبســة الفاخر ة الغالية، وماج الناس وساروا فوقها، ولم تمتد يد واحدة لأخذ قطعة واحدة منها مع أن الناس بؤساء ، بل ديست بأقدام الجموع الهادر ة الر افعة أصواتها تستنكر

مقتل الشهيد بن زرجب.

في الأيام الموالية ازداد حجم المظاهرات. كانت مليحة في الرابعة عشر من عمرها وهي واعية بحجم المأساة الكبيرة التي كان يعيشها الأهالي الذين نهشتهم أنياب البؤس فاضطرهم إلى ترك قراهم واللجوء إلى المدن. وتراكمهم الفظيع في أحياء فقيرة بائسة يكسو أرضها الطين والتراب.

فزاد تأكدها وهي تتبع كل ذلك عن كثب بحقيقة ما كان قد قال لها ولزميلاتها علماء دار الحديث عن شناعة صنيع المستعمر وأفعاله المقيتة:

- إنه القمع الشديد هو الدي يدفع القرويين إلى هجرة نحو المدن.

بعد شهر علمت الفتاة الشابة أن صور الحرب والمجازر لم ترحم المدن. فقد قام العدو بشكل عشوائي أعمى أرعن بقنبلة نواحي بني سنوس غرب جبال تلمسان مستهدفة من الرجال والنساء والأطفال نجا منهم مَن نجا فالتحق



ثانوية البنات بتلمسان



بالمدينة موليا شطر ه البيوت القصدير ية. زادت كلمات خطباء دار الحديث حدّة واشتدت لهجتهم، ومليحة التي كانت تتردد على تلك المؤسسة بل المنبر المقاوم تتقطع ألما وأسى كلما سمعت بحدث مأساوي غاشم يلم بذويها من بني وطنها.



سو ر المشور

الشعو ر بالثور ة :

تنامى الشعو ر بالثو رة لدى مليحة ضد القمع الاستعماري، ولكن الذي كان يؤ رقها بعد تلك المظاهر ات الصاخبة عند دفن الد كتور بن زرجب هو كيفية نقل ذلك الشعو ر إلى واقع ثور ي تر ى صنائعه على الأرض وفي الميدان. لقد كانت واعية بكل المخاطر التي قد تنتج عن التز امها عند مو اجهة الخصم

الفر نسي مباشر ة، خاصة بـعد أحـداث وهر ان التي كانت أخبرتها عنها
أختها ربيعة التي تكبرها بإحدى عشر سنة والناشطة بإحدى الخلايا الفدائية
بتلمسان. ذات مساء حكت لها ما اقترفه المستعمر في حق السكان هناك يوم
٢٦ فبراير الحز ين سنة ١٩٥٦: في وهران على غر ار مدن الوطن الأخر ى
قررت جمو ع المواطنين جعل يوم للحداد ذكر ى الشـهيد بـن زرجب،
فاستجاب جميع التجار لطلب جبهة التحرير الوطني، فقامو ا بإغلاق



مناجرهم، فلم يفتح متجر واحد، ولم يكتف الشباب بذلك بل قام حوالي خمسمائة منهم بالتظاهر وسط حي الحمري ي ما فتئ يز اد عدده ويتسع صفه، ثم تو جهوا نحو مخز ن ذخير ة السلاح لقوات الأمن الداخلي وتوقفوا أمامه، وهنا وقعت المأساة إذ فز عت الشر طة وأخافها هذا التجمع فقامو ا بإطلاق الر صاص، فقتل وجر ح الكثير .

كيف السبيل إلى واقع كفاحي، هذا الذي كثير ا ما كان يتناقل على شفاه



سيدي شاكر: مكان للمقاومة المدنية



الطالبات في الثانويات. بعد شهر، بالتحديد في أواخر شهر ماي، عُرف جواب أول حين قامت طالبة في السنة الأولى بنشر ورقة أخرجتها من محيب مئزرها فيه بيان للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، فرع العاصمة، يحثهم على الالتحاق بصفوف جيش التحرير، و أيضا على الإضراب: "استنكارا لمقتل الأخ الشهيد زدور بلقاسم من طرف البوليس الفرنسي، وللنهاية المأساوية لأخينا المحبوب بن عودة بن زرجب، وكذلك للجريمة النكراء التي ارتكبها الجيش الم[illegible] في حق أخينا براهيمي الطالب [illegible] الذي أحرق حيا. و لمقتل الكاتب اللا[illegible]ا حوحو سكرتير معهد ابن باديس بقسنطينة، نعلن إضرابا لا محدودا للدروس..."





البيان كان قد جاء من كوليج سلان الدي قال عنه البوليس الفرنسي:" إنه ملجأ شباب يستحيل ضمهم إلى قضيتنا. أما الجواب الثاني فهو قـــرار من جيش التحرير الوطني سنة ١٩٥٦ وهو زر ع خلايا فدائية بتلمسان.



قصر المشور

1957

تحت صنارة كبيرة ب[illegible] مدرسة سلان، قامت مجموعة من الطالبات من قسم السنة نهائي اللواتي كن يترددن على دار الحديث، بقــراءة الأخبــار الأخيرة من قِبَل المدرسين:

– لقد التقى مسئولو جبهة التحرير الوطني بالإصلاحيين.

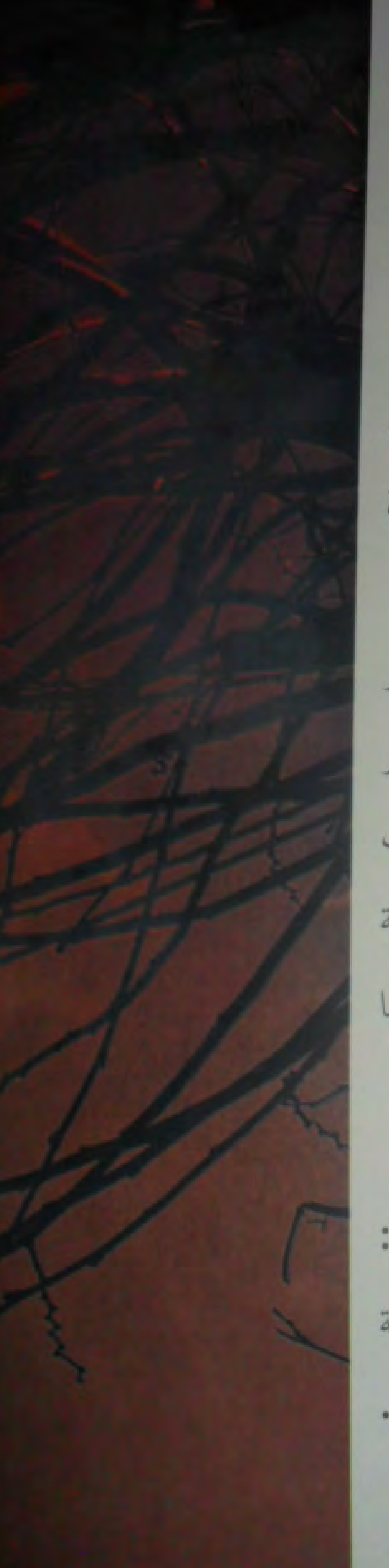
- والآن سيبدأ العمل الوحدوي!

ألقت مليحة سمعها مرهفة إياه تلتقط أذناها بانتباه بالغ ما قيل عن هذا اللقــاء، ثم تســاءلت: مَن تُر ى يكون من اللذين سيلتحقون بالمقاومة من الإصلاحيين؟ لا بــد أن يكون أولهم توفيق المدني والعربي التبسي صاحبي الخطب والمقالات الملتهبة.

الإصلاحيون، هذا الاسم ظل ير ن في أذن مليحة حــتى وهي على سرير ها ليلا متسائلة: إذا التحــق مُدرِّســونا بالمقاومة، فماذا علينا أن نفعل نحن تلامذهم؟

*


الشريف بلقاسم



لم تكن الثانوية المنبــع الوحــيد في تثقــيفها وتربيتها، لقــد كانت دار الحديث شـغلها الشاغل في حــياتها، فهي التي غذت أفكارها الحميمية و دلتها على الفعل الملموس الدي يجب القــيام بــه و على وضعها الحقيقــي كفتاة جزائرية.

عندما كانت تغادر المدرسة بعد منتصف النهار وتترل الدر ج الذي يفصل الثانوية عن ســور المشور، كانت تشعر بــنو ع من الانبــعاث يجعلها تو اجه ماضيها [illegible] أسوار قــلعة الزيانيين لا يز الون يحتف[illegible] آثار تاريخها الجزائري العربي البربر ي في ان واحد.

*

ثم جاء حدث أثر فيها بشكل حازم ومباشر: حكم على أمها بغرامة مالية بتهمة الرمي بقنبلة على وحدة عسكرية متنقلة في الرياض الأحمر. تهمة كاذبة والدليل هو التفاوت الكبير بين

خطورة التهمة وتفاهة العقــاب في وقـــت كانت الحرب فيه معلنة على الجزائري الذي كان يتعرض للعذاب والموت لأقل من ذلك.

ناشطة ومقاوِمة شرسة .

كيف التحقت الفتاة الشابة بــالفدائيين كأختها وأمينة ســرها ربــيعة، وصديقتها شميسة بابا أحمد التي قُتلت بعدها بكل برودة في أعالي العبَّاد، وقد كانت في خلية فدائية تحت مسئولية مليحــة؟ لقــد كان الاتصال الأول بشبكة المقاومين على يد زْهور المناضلة منذ الساعات الأولى للثو رة، فكان لا بد من مواصفات جدية عديدة لاختيارها سكرتيرة للخلية المكافحــة في حي سيدي شاكر: ذكاء وقاد، روح المبــادرة، اندفا ع رزين وفطنة في الظروف الحر[illegible]

في جزائر الك[illegible] المقاومة تحتاج النساء فقط للمساعدة والمســاندة والتمريض في ا[illegible] لا بد من تجنيدهن أيضا كمقتحــمات لميادين العدو ومواجهته ومهاجمته مباشر ة. كانت مليحة حميدو وحسيبــة بــن بوعلي وعويشة حاج سليمان، من اللواتي حرضت النســاء علىالقــيام بمهمات الفداء والاتصال والكفاح المباشر، فعسكرة النســاء مكنتهن من التربع على عرش عال وكبير في الوعي والذاكرة الجماعية للأمة .

إقتنعت مليحة أن انخراطها في العمل السري يقدم للعدو إشارة واضحة أن الكفاح في الجزائر مشترك بين النساء والرجال، يدان تضربان لا فرق في الجنس، وهي رسالة كانت تحرص على توصيلها إلى زميلاتها في الثانوية. إن علاقتها بأختها ربيعة، ورفيقتها شميسة بابا أحمد، وجارتها في الحي زهور، وضحت للعدو رسالة لا لبس فيها ولا غبار أنه لن يستطيع غلبة هذا الشعب مهما كان جبروته وبطشه، ما دام العزم قد عقد داخل العائلات، وبين االأصدقاء و الجيران، وكل دلك يشكل عوامل ملائمة يعلم البوليس الفرنسي أنه عاجز تماما على مقاومتها.

عندما بدأت مليحة تجمع الاستعلامات لمراقبة أوقات الدوريات الليلية للبوليس، و ترسم خطط سير المجموعات المتحركة لقوات الأمن الداخلي، وتقوم باستدلال حواجز الدرك حتى يتسنى [illegible] التحرك نحو الجبل، كانت قد استنفعت بتلك العوامل بكل ذكاء. [illegible] كانت قد كونت مقاومة مدنية خلقت الجو المناسب للمقاومة المسلحة.

لم تكن المهام اللوجستيكية والتموين والإمداد والإسناد لتغيب عن عقل وتدبير مليحة، فلقد كانت تمون الفدائيات التابعة لخليتها بالقنابل، و توصل المسدسات المخبأة في محفظتها من أجل عمليات الفداء للقضاء على

الجواسيس والمخبّرين، وكذلك ترمي بالقنابل لتفجيرها على المرتزقة السنيغاليين المتوحشين الذين كانوا يحاصرون المدينة.

فأصبح بيت آل حميدو مركزا لوضع الاستراتيجيات للمقاومة المدنية، حيث كانت تجهز هناك العمليات الأكثر جسارة وبسالة ضد الفرق الليلية للبوليس، كما كان المخبأ الأمين بعد الضربات ضد الحواجز التي كانت تحاصر الأحياء الشعبية. في ذلك البيت أيضا كان المنخرطون الجدد في المقاومة من فئة الطلبة يتلقون النصائح، أما المجاهدون الذين كانوا على وشك الذهاب نحو الحدود المغربية، فكانوا يتوقفون قليلا هناك ينتظرون أن تهيئ لهم مليحة العبور، وكان من بينهم الشريف بلقاسم، الذي لا زالت عائلة حميدو تتذكر ما قاله في تلك الليلة الخالدة، إنه من مصلحة مليحة مرافقته إلى المغرب [illegible] الأخطار التي كانت تحدق بها، فكان جواب الأم:

- من الصعب جدا [illegible] مفارقتها.

- إن ذلك في صالح ابنتك، فالعدو يزداد شراسة

لتقول مليحة بعدها:

- أنا أفضل تحمل مسئولياتي كاملة عن أفعالي، وأنا أعرف أن العدو سيشتد بطشه بإخواني إن أنا اختفيت.

وعندما غادر هذا المسئول الكبير، عبر لهم عن صدق امتنانه وإعجابه لهذه

العائلة العظيمة التي رمت بكل ما تملك من أجل تحرير الوطن، وخاصة منهم مليحة ذات النبل و الوفاء.

الاعتقال:

كانت تلك الليلة التعسة ، ١٣ أفريل 1959، هادئة هدوءا مريبا بعث في قلوب السكان شيئا من الخوف والحذر، بعد أن تعودوا إلى طلقـــات النار المرعبة.لقد كان ذلك الهدوء ينذر بأن أمر ا مأساويا سيقع حتى إن النســيم كان إذا حر ك أوراق الأشجار بسيدي شـــاكر، خُيل أنه كلام منخفض لناسينوون الغدر. كان القمر في تلك الليلة يلقـــي بـــنو ره الر مادي على ســـطوح المنازل والفنائات، جاعلا الفضاء محزنا [illegible]، في حـــين كانت كلاب ضالة تعبرالأزقة بسرعة الإعصار قبل أ[illegible]عالي بودغن و هي تلقي صر خات جنونية. في قلب تلك الليلة [illegible] الو احدة صباحا، سُمع صوت خافت لمحرك، كان ينقطع في بعض الأحيان، مو هما أن السيارة قد توقـــفت في مكان ما. حـــينها كان الناس يحاولون معر فة المكان الذي توقفت فيه بالتقريب، والبيت الذي عمد البوليس المر عب اقتحـــامه، أما الجير ان فقد استيقظوا والكل يتساءل عن المقـــصود بالاعتقـــال، وهم ير ددون هذا الدعاء: كان الله في عون

إخوانتا المساكين.

و حين يقلع المحرك من حديد، كانوا يمدون آذانهم لمعرفة إن كان البوليس راحلا أو قادما نحوهم، و كان القلق يغزوهم ثانية. وفي تلك الليلة، بدأ صوت المحرك يقوى حتى يخيل أنه حيوان مفترس جائع يقصد غنيمة مقيدة: شبح الموت يتقدم بلا رحمة نحو منضدة التضحية. تسمر نظر أم مليحة في نقطة غامضة من الغرفة التي كان يلفها الظلام، و هي تتابع بتوتر شديد تقدم الوحش الحديدي المفزع، خفق قلبها بشدة، سال العرق على جبينها، تجمد الدم في عروقها. أحست بصوت حاد يثقب رأسها حين علمت من توقف المحرك أن المقصود من زوار الليل هو بيتها. صارت الثواني دقائق طويلة، انقطعت الحياة في البيت، فلا ميدان للشك، إن العدو يترصد أمام مدخل دارها. اعتدلت فاتحة





عيناها وهي تشد الغطاء بقوة.

طرق على الباب الخشبي طرقات عنيفة، قـامت مليحـة من غرفتها تريد اللحاق بأمها فقالت هده الأخيرة:

- ابق هنا يا ابنتي، ابق في غرفتك، سأذهب بمفردي لمعرفة الأمر.

اجتازت الأم الرواق الضيق بخطى سريعة ثم فتحت الباب، فقال لها أحـد الزوار بدون مراوغة:



– هذا بيت حمادو، أليس كذلك؟

ملأت غصة حلق ا[illegible] [illegible]ف ريقها فما استطاعت أن تجيب، فقال لها سائلا إياها:

– من هي مليحة ؟

قبل أن يتسنى لها أن تجيب، قالت مليحة التي تبعت أمها دون أن تشعر:

– أنا هي.

اندهش الشرطي من إجابة مليحة الحازمة، ثم قال لها:

- هلا رافقتنا إلى السيارة؟

كاد يغشى على الأم، فهي تعلم مسبقا مصير ابـنتها وما سيحـدث لها على أيديهم، ثم نظرت مليا في عين مليحة بأسى عميق في القـلب، وهي تر يد أن تقول لها كلمات، وللز ائر ين الغلاظ القلوب عبارات، لكنها لم تستطع، فشفتاها بقيتا مغلقتين كأنهما قد خيطا.

اقتربت مليحة من أمها ووضعت يداها على كتفها كأنها تر يد أن تهدئ من روعها، أو أنها تر يد أن تودعها الودا ع الذي ليس له لقاء بعد في هذه الدنيا، لا أحد يستطيع معر فة ما كانت تو حي بـه تلك اللمسـة، ثم مدت رجلها بخطى ثابتة تخطت بها عتبة البي[illegible] نحو السيارة محاطة برجلين ير تديان



زي الشرطة.

أمام الشاحنة فتح الباب شرطي بزي مدني، وكان في الشاحنة رجل ملثم رفع عينيه لينظر إلى مليحة ثم هز رأسه.

قالت مليحة للرجلين الذين كانا يحيطانها:

- هل أستطيع أخد معطفي؟

- بإمكانك ذلك و لكن نأتي معك.

غادرت مليحة ذويها، لن تستطيع رؤيتهم بعد الآن، لقد كان يسكن عينيها أمر غريب يستحيل وصفه، لم تكن هناك أي علامة تشير إلى الخوف أو التردد وهي ترافق الشر[illegible] لقد كان صوتها حازما، وألفاظها واضحة لا تلعثم فيها، وخطاها ثابتة م[illegible] ارتباك فيها ولا ثقل. من أين كانت لها تلك



القوة في تلك اللحظات الرهيبة؟ ومن أين استمددتها؟

الاستنطاق:

١٣ أبريل ١٩٥٩، الساعة الثانية صباحا:

الكهرباء، أو الجيجين، كلمة معروفة معتادة لدى الشرطة، إنها وسيلة رهيبة من وسائل التعذيب الجهنمية، يعرفها من الرجال والنساء من ذاق وبالها وكتب له الحياة والنجاة فحكى عنها، فنددوا بهذه الممارسة المهينة للكرامة الإنسانة التي وقد ورثها المستعمر الفرنسي من الجيستابو الألماني.

ممارسة لا إنسانية:

بمجرد أن يدخل المرء إلى قبو مركز الشرطة تصدمه رائحة عرق كريهة، ورائحة بول تزكم الأنف وتجعل المكان مقرفا لا يطاق. ثم يمر المشتبه به عبر ممر مظلم ليجد نفسه في غرفة مجهزة بأنواع متعددة جهنمية للتعذيب في مقدمتها آلتين مشحنتين بالكهرباء وضعتا على طاولة خشبية مسودة.

وفي أقصى زاوية الطاولة نفسها وضع قطبين مرتبطين بمصدر الكهرباء، و في زاوية أخرى وضع أنبوب مطاطي أسود كأنه أفعى سامة تريد أن تسري بسمها في جسد طريدتها أو نهش لحمها بكل شراسة وعنف. ذلك الأنبوب

كان يوضع في أفواه المتعرضين للتعذيب ويسكب فيها الماء مالئا بها بطونهم حتى ليكاد يختنقون أو ينفجرون، ليرفع عنهم قليلا ثم تعاد الكرة مرات قضى فيها الكثيرون نحبهم.

بينما وضعت هناك على رف خشبي كمّاشات مدماة جعلت لنزع الأظافر، وغير بعيد عنها علقت حبال يطلق عليها حبال الشنق للأيدي يمارس إلى جنبها أنواع من التعذيب على أيدي زبانية قُدَّت قلوبهم من حجر صلد لا يرحمون ولا يعرفون معنى للرحمة. من حجرة مجاورة كان يتصاعد أنين خافت



يو حـــي أنها امرأة كانت تحت التعذيب، ربما كانت إحـــدى الفتيات التي فقدت منذ ستة أيام في ضواحي تلمسان.

عندما دفع شرطي وقح بمليحة داخل غر فة مر عبة، استدارت هذه الأخيرة نحو الر جل الذي كان يبدو أنه هو المسؤول، ونظرت إليه نظر ة استحقـــار واســـتخفاف. كانت تدري جيدا ماذا ينتظر ها من تعذيب لكن صورتا الشهيد بن زرجب و سلفها الر ايس حميدو كانتا تملآن عقلها وقلبها وتمدها بنوع من المناعة والحصانة.


عين أوزوتا

١٣ أبريل ١٩٥٩، الساعة الثالثة صباحا.

شاحنات مملوءة بسبعة من رجال الشرطة يرتدون معاطف مضادة للرصاص ومسلحون برشاشات، يتقدمون بسرعة نحو أعالي العباد. تتبعهم ثلاثة سيارات حاملة رشاشات، وكان من بين الرجال قناصة، مهمتهم هدف يقع بعين أوزوتا أين زعمت مليحة بوجود أسلحة مخبأة هناك.

على بعد من قبة الولي الصالح سيدي بو إسحاق، وبنيته الحجرية تشبه مشنقة نصبت لاغتيال ضحية نزل الجميع من الشاحنات بعد أن أوقفوا محركات.

كانت مليحة التي رافقت أولئك الفرنسيين تلبس معطفها وتمشي بخطى ثابتة، وكانت من حين لآخر تنقل بصرها يسرة ويمنة كأنها تريد الاطمئنان على



سيدي بو اسحاق

شيء تحرص عليه، بينما كان من ير افقـونها من الشـرطة المسلحين يتتبعونها وأعينهم لا تفارقنها.

كان يحوم على المنطقة وميض أشهب. قبـة سـيدي بـو إسحاق، ومئذنة عين أوزوتة، وقبـب الأولياء الصالحين الموجودين بمقبرة سيدي السنوسـي، كلها أعطت للمكان هالة مقدسة.

أحست مليحة للمر ة الأولى بخفقان قلبها، لا بد أن أمرا ما سيحدث، أسرعت خطاها قليلا، ثم تو جهت مباشرة إلى الحجارة المحيطة بسيدي بو إسحاق و هو يحدث فيها تأثير لا يقاوم. في حين كان المسلحون الفرنسـيون يرون أنهم على وشك [illegible]ل على الأسلحة المخبأة هنا فراحوا ينتشرون على [illegible]حة وهم ينتبهون لتصرفات الفتاة.



دخلت مليحة في جو روحاني، فبلاط المقبرة المحايدة للطريق والمصنوع من

الرخام كان يعكس نحوها حزمات لماعة تنصب من كواكب الليل. إسم

اخترق شفتيها دون أن تشعر: أنا اسمي حميدو كما كان يدعوني جدي

الرايس حميدو سيد البحار.

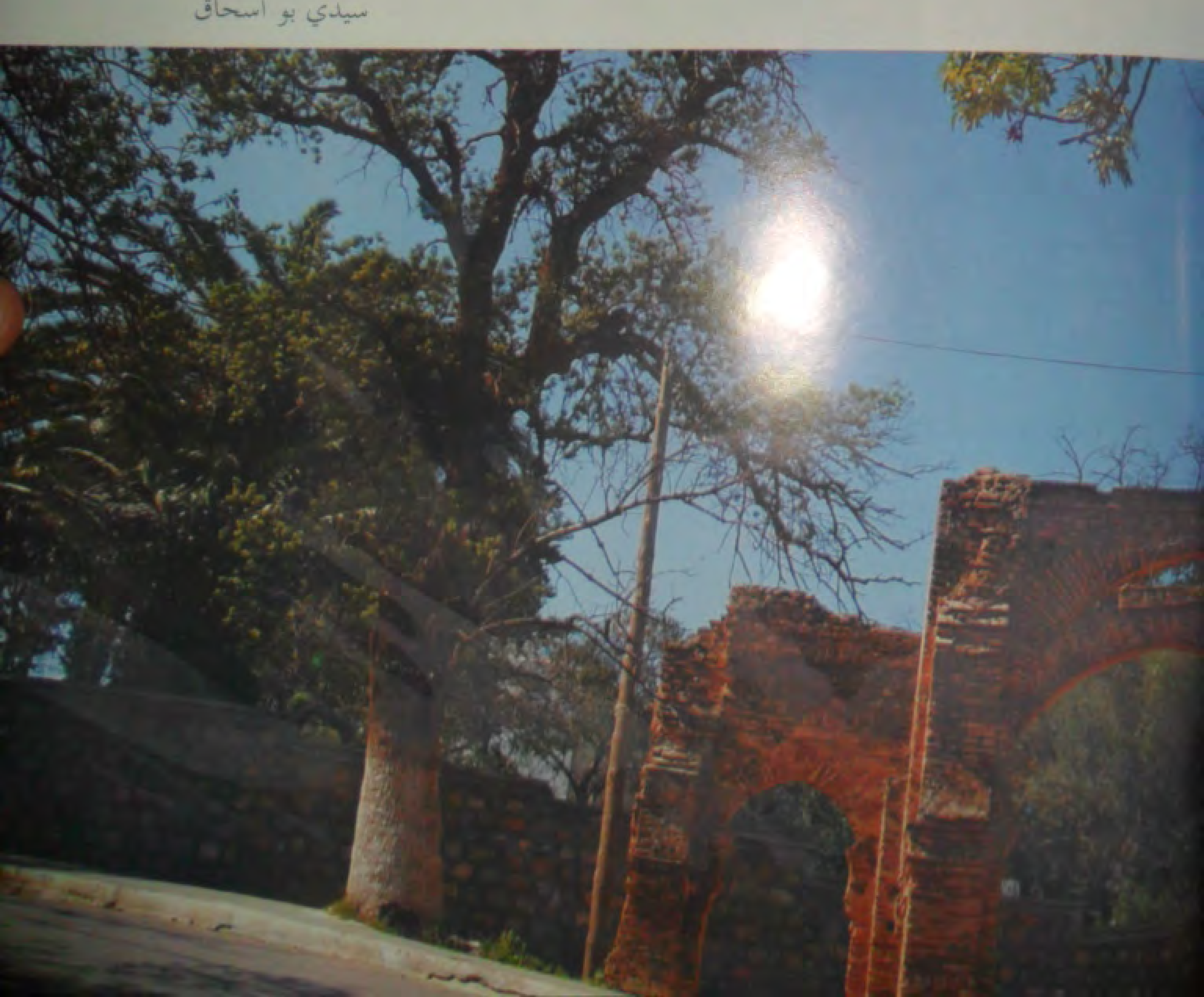
كانت ضربات قلبها تزيد خفقانا، وتحمل ما في عروق مليحة من دم فتفرقه



على وجنتيها، وهي لا تزال تواصل قولها محدثة نفسها: أنا لست حمادو كما تطلق علي فرنسا.

زادت خطواتها سرعة، وأنفاسها أكثر صعودا وتلاحقا، أما عيناها فقد اتسعتا ملقية بنظرها في الفضاء كأنها تبحث عن شيء ما تريد الارتماء في أحضانه، وهي في تلك اللحظة الجليلة تعيد إلى شفتيها ما كان قد قاله جدها الرايس

سيدي بو اسحاق



حميدو حين صاح في أصحابه: "يجب أن نموت شهداء! يجب أن نموت شهداء! مادام النصر لم يحالفنا هذه المرة فلنمت موت المجد، ولا نترك العدو يقبض علينا أحياء! ولنمت شهداء !".

ألقت الفتاة الصغيرة معطفها على الأرض واتجهت مسرعة نحو القبة وهي تصيح بأعلى صوتها:

- مليحة حميدو ! أنا مليحة حميدو! اسمي الحربي رشيدة، وأبي، إخوتي كلهم حميدو مثل الرايس!

تابعت الشرطة ما صدر من مليحة، فظنوا يقينا أنها تريد الفرار، فصاح قائدهم بصوت حاد جاف مر كزا نظره على القناصة وهو يقول:

- أطلقوا النار! أطلقوا النار، إنها تر يد الفرار! ألا ترون أنها تحاول ذلك! لا تتر كوها تذهب بعيدا!

استجاب الشرطة لأمر قائدهم فأطلقوا الرصاص على الفتاة الصغيرة في لحظة واحدة، وسقطت مليحة على الأرض قد مز قها الرصاص.

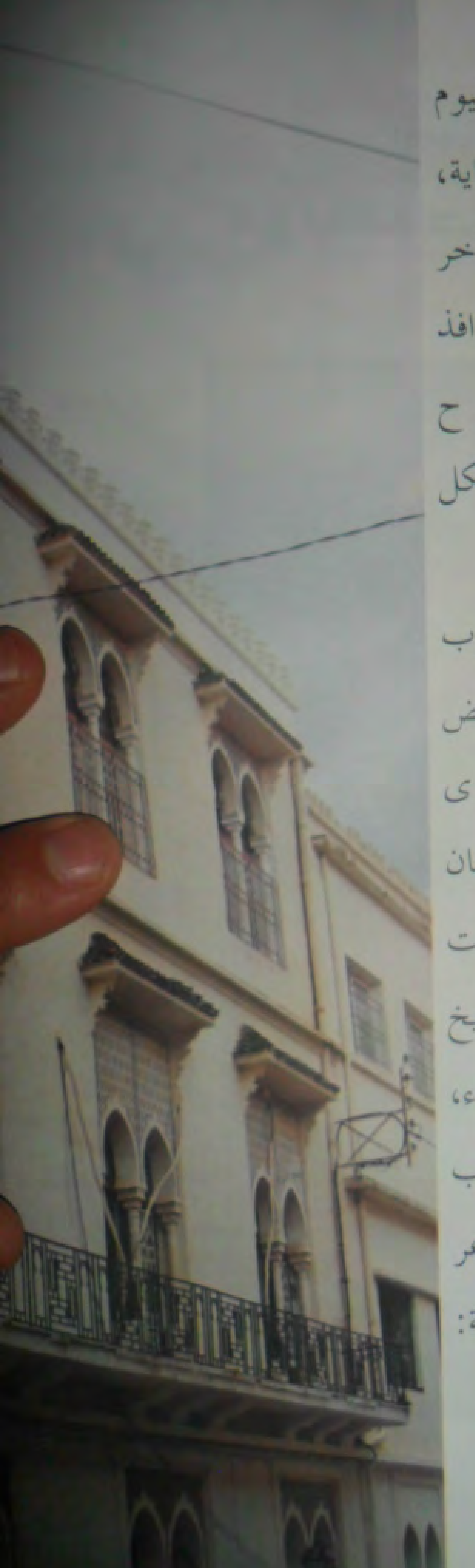
اقترب أحد الضباط من جثمانها الذي لا يز ال ساخنا ومضر جا بالدماء، ثم وقف ينظر إليها وقال لمن حوله:

- إنها لم تكن تر يد الفرار، لقد كانت تر يد أن تموت.

1940 - 1957

عويشة حاج سليمان





كانت السماء تمطر بغزارة ذلك اليوم بتلمسان، وكان الجو ثقيلا ولزج للغاية، وكانت البروق التي تظهر من حين لآخر هناك في البعيد و التي نشاهدها من نوافذ أقسام البنات لدار الحديث، تغمر سطوح المنازل في لمح من البصر، فتراها تلمع بكل أنواع لمعانها.

كانت أسنُّ طالبات دار الحديث تقترب أعمارهم من خمسة عشر سنة، وفي بعض المرات كانت تزيد، وفي مرات أخرى تنقص بقليل .كانت عويشة الحاج سليمان من بين فئة الأعمار [illegible] كانت زميلاتها تلتحقن بها بين درسي تاريخ الدين أوالأخلاق، أو أحكام القضاء، تنزوي إلى مكان لتحفظ عن ظهر قلب بصوت منخفض بعض الأبيات للشاعر الإصلاحي الكبير محمد العيد آل خليفة: الحرية.

منظر شامل / هر ان

هذه الأرض سوف تنبت عزا

إن تصافت في ظلها الأحزاب

[illegible] الدين و الجنس

[illegible] عليها و كلنا أحباب

[illegible] في الجزائر حرا

[illegible] لا يخفه إرهابا

أرشدينا السبيل أيتها الحمراء

هل إلى وصل بيننا من سبيل

غبت عنا و طال منك الغياب



مقطع حديث.

- هل قلت حر [illegible] لمية ؟

- كم يا تر ى ثمنه [illegible]

- إنها غالية جدا.

- أتعلمين يا ابـــــــــــنتي، كم كان ثمن ٨ ماي ٤٥ جر اء تنظيم مظاهرة احتجاج؟

- آلاف القتلى.

- تصوري إذن كم سندفع ثمن انتز اع أرض منهم بالكامل.

لا تز ال عويشة تذكر ذلك الكلام الر ائع
الذي ألقاه الشيخ العر بي التبسي في خطبة له
بوهر ان أمام حشد من المخلصين الذين
راحوا ينصتون ببالغ الاهتمام إلى كل كلمة
خر جت من شفتيه: سيأتي اليوم الذي
ستخرج فيه فرنسا، فعلى المسلمين الاتحاد
فيما بينهم إن أرادوا تحقيق هذا الهدف.

إن هذا الكلام هو الذي كان ير دده المدرسون
والتلاميذ بكل ما يمكن أن يصدر من عمق
نفوسهم من أمل.

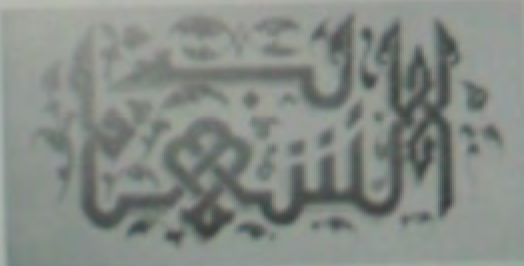


جامع محمد الكبير / وهر ان

أما بعض الإصلاحيين الأخرين فكان حكمهم تجاه النظام الاستعماري بلا تنازل، وكان شغلهم الشاغل ترقية حياة اجتماعية في ظل مبادئ مستمدة من الإيمان الحقيقي، فكانوا يظهرون بوضوح تمنياتهم في رؤية إخوانهم في الدين قد جمعهم الصفاء الروحي المؤكد.

أما بالنسبة لعويشة، فكانت لا تقنعها تلك الخطابات: ما موضع العقيدة من العالم الحديث و ما يتطلبه من تكييف و تأقلم مع الواقع؟ لقد كانت تقرأ بانتظام مقالات «الشهاب»، وهذا





كانت عويشة تقرأ باستمرار الصحافة الإصلاحية



أعطاها انطباعا آخر. لقد كانت تحس أنها مخاطبة، مهتمة بما كان يصدر في تلك المجلة، ولكن إلى أي حد؟

بين كلمات العربي التبسي ومقالات الشهاب، وما يمليه عليها ضميرها عن الحالة الحقيقية لها ولمواطنيها، لقد تسلل إلى داخلها نوعا من التناقض المؤ لم. فهل يمكن أن نكتفي في تر داد شعر محمد العيد آل خليفة؟



الشيخ عباس ابن الشيخ الحسين

بعد الظهيرة من ي[illegible] كانت نساء تلمسان من عادتهن القيام بالز يار[illegible] بعد أن انتهت عويشة من غسل الأواني، انسحبت إلى غرفة أين كان يصلها صوت أمها فاطمة وجارة لهما تسمى صليحة التي عادت من ندرومة مدينتها الأصلية، و هي تذ كر



كلمات الشيخ الإصلاحي عباس بن شيخ الحساين وما حصل في المدينة العتيقة من أحـــداث قلبــت أوضاع الناس رأسا على عقب. إن كلمات الشيخ على جميع أفواه السكان صغارا و كبارا، فظل يردد أنه زيادة على العقيدة العميقة في الخالق، يجب الثقة في النفس. هذه الثقـــة و هذا الإيمان هما القـــاعدة الأساسية للإرادة التي بدورها ستقـــوم بـــتفجير الحركة التي تحقق الفوز، المقاومة، الكفاح.

وقائع: ندرومة أوائل سبتمبر ١٩٥٤

جماعة من الر جال كانوا يجلسون بجوار ما بقي من محراب سيدي سلطان، وكان أحدهم ير تدي زائرة سوداء رفع رأسه قليلا [illegible] الصمت المكان فلا أحد يتكلم، ثم إذا بالر جل ي يكشط حـــنجر ته، و لم يكن يُعلم إن كان ذلك تعبيرا عن غضب، أو أنه مجرد تحضير لكلام ير يد أن يتفوه به.

مقطع حديث:

- الشيخ عباس الحسين على علم جيد بالمستقبل.

صوت آخر رفع قليلا:

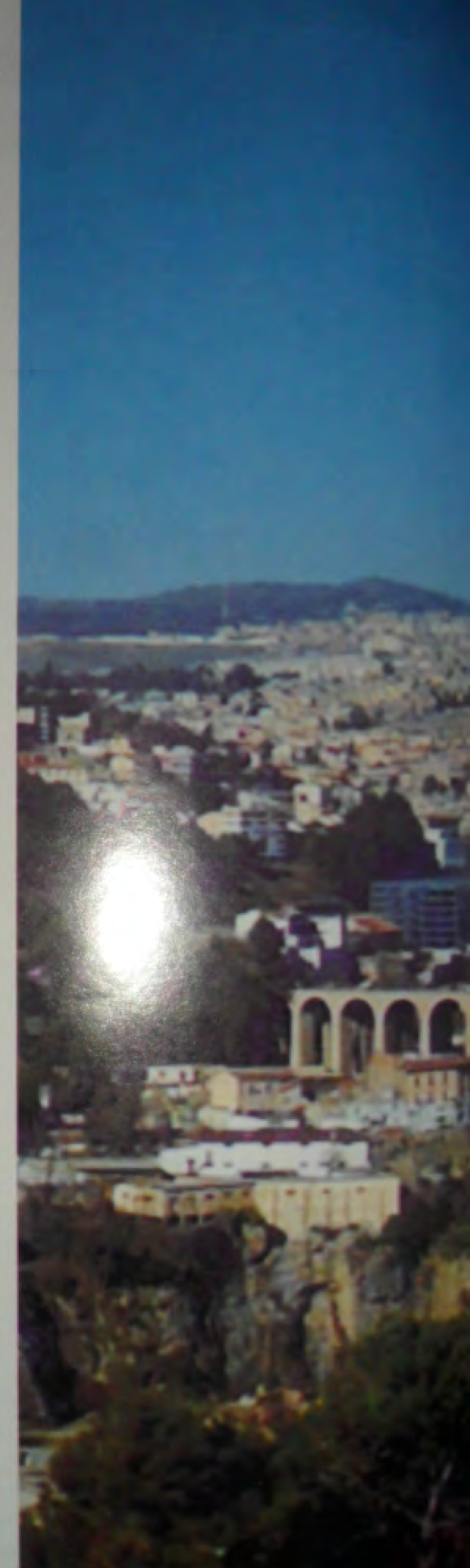
- لقد قال بالحرف الواحد: " لا تظنوا أن الجزائر تنام حاليا، إنها تكافح ولكن كفاحها سري كما كافح جيراننا في المغرب وتونس. بعد شهر أو شهرين، قبل سنة على كل الأحوال، ستنتفض مثل سائر الدول العربية. ودور كم الأسمى وواجبكم الأعلى هو المشاركة.

- لكن كيف له العلم بذلك؟

بعد صمت قليل، قال أحدهم بتردد:

- ربما من أولاؤك الدين يكافحون "سريا"

- هل يمكن أن تنتفض الجزائر في شهر أو شهرين مثل رجل واحد لدفع "الرومي" وطرده؟





البصائر

El Bassair

الإصلاح



ان العهد الذى كانت الأمة تحب فيه
طالب القرآن الرجل الكامل فيها ، وعالم
المختصر ، الرئيس المطاع ، وقارئ
الألفية الأديب البارع قد ذهب وانقضى

– الله أكبر، احفظنا وامنحـــنا القـــوة والشجاعة للقــيام بهذا الكفاح، واصل الرجل دو الزائر ة السوداء رافعا يديه إلى السماء.

أوت ١٩٥٤، دار الحديث، تلمسان.

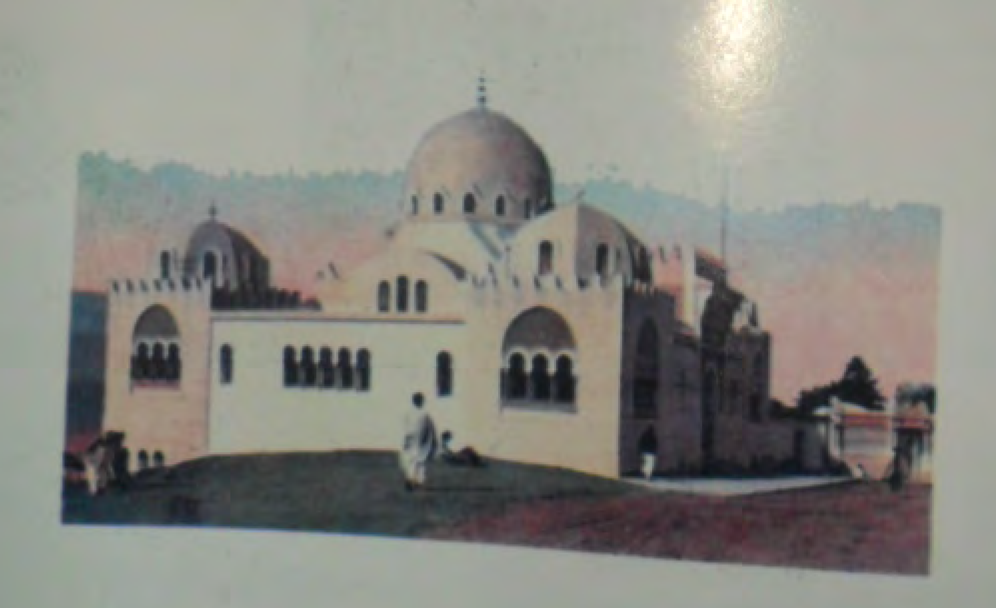
في ذلك اليوم بعد صلاة المغر ب، لم يكن الحديث في القاعة الكبرى للمنبر إلا عن الشيخ أحمد حماني وقدومه إلى قسنطينة، لقد كان خطابــه قــاطعا وواضحـا ومباشرا. فكل العر اقيل والصعوبات التي كان يعيشها مواطنوه كما قال في إحدى كلماته لا يمكن تجاوزها ولا حـــلها إلا في: "إطار حر ية واستقلال الجز ائر".

تواجد في المدارس الحر ة جو منح وعي كبير لدى التلاميذ، بنون و بنات، اختلط بأمل متز ايد. مو ضو ع التضامن بين

المواطنين لم يكن ينحصر في التوصيات الدينية فقــط، بــل كان يتحقــق بالالتحام حول هدف تمثل في كلمات كالحر ية والاستقــلال، وكانت خطب الجمعة التي كان يحضر ها الر جال والنساء من كل الأعمار تو حي بإرادة قوية تتحدى نظام معاكس تماما لمصلحة الجماهير الجز ائر ية.

*

حين قامت صليحــة بإحــدى زيار الها إلى جاراتها وذكرت مر ة أخر ى كلمات الشيخ حماني، تذ كرت عويشــة أنها لا تز ال تحافظ في وثائقــها الخاصة نصا كتب في "البصائر" عن الشيخ قال فيه أن "العالم الحديث مليئ بالتحديات، و الإنسان المعاصر الكامل ليس ذلك الذي يتقن حفظ "الألفية والمختصر" فقط، وإنما هو ذلك الذي يجمع بين علوم الدين والعلوم التي تبثها كليات باريس [illegible]ن أو نيويورك والخاصة بعلوم الكون والحياة."



قرأت المقال بنظرة أخرى على ضوء الأحداث الجديدة، وكان الغليان الاجتماعي الشامل الذي تشهده البلاد يدل على أن تلك الكلمات التي كتبت سنتين من قبل كانت تنبئ بالحاضر.

*

ذات مساء، في منزل الحاج سليمان.

لقد كانت فاطمة بن عصمان مشغولة البال أمام دلائل ابنتها المقنعة:

- لقد وصلت إلى نهاية الدراسة بدار الحديث، فكيف السبيل للحصول على مزيد من العلم والمدرسة بتلمسان هي حكر على الذكور؟

طأطأت الأم رأسها ورفعت كتفها قليلا كأنها تعبر لها عن أسفها من هذا الوضع، ثم قالت:

- وماذا تريدين أن أقول لك؟ هكذا تسير الأمور.

- هنا بتلمسان وليس في كل مكان يا أمي.

نظرت الأم إلى ابنتها محدقة في عينيها، ثم سألتها:

- ماذا تريدين بقولك هذا؟

فأجابتها عويشة بحماس شديد:

- هناك يا أمي، هناك تو جد مدارس للبنات.

- هناك، أين؟

- بالعاصمة تو جد ثانوية فر نسية إسلامية للبنات.

*

سنة ١٩٥٥ - ١٩٥٦ الثانوية الفر نسية الإسلامية بالجز ائر العاصمة:

أحست عويشة بغصة و انسداد مز عج في حلقها، لقد كان كل شيء جديدا عليها: فناء الثانوية، الطالبات، لهجتهن و نطقهن للكلمات، وحتى الر وائح التي كانت تصدر من النباتات التي لم تعهدها من قبل. لقد كانت تبدو لها الأشجار أعلى و أعظم. أما العاصمة برمتها فقد كانت تر اها فسيحة جدا عملاقة مهدّدة، طر قاتها الحلز ونية المتـ[illegible]ـسا وطئها المر ء بدا كأنها تؤدي به إلى ر كن من السماء، فأحست [illegible]ـر فها من قبل.

كان ثقل الأيام الأولى تز يد وطأته عليها في كل حين، و كانت في بعض الأوقات تسترق السمع وهي تقترب من الطالبات اللو اتي يتكلمن بصوت منخفض عساها تعر ف ما يقلن.

- هل تعلمين أن السفينة القديمة "مدينة الجز ائر " التي تعبر بين مر سيليا والجزائر وصلت هذا الصباح؟ أتدرين بمن جاءت؟

- من؟

- عبان رمضان. لقد تعرف عليه أبي.

كيف لها العلم بهذه الشخصية وهي التي لم تغادر المدينة الصغيرة تلمسان، وقد عودتها دار الحديث على أسماء أخرى؟ عندما عرفت أن هذا المناضل هو الذي نظم الإضراب عن الطعام للسجناء السياسيين قبل سنوات بسجن بربروس، علمت مدى جهلها بما كان يجري خارج مدينتها. ماذا جرى



عبان رمضان

في تلك الأمكنة في تلك الحقبة من الز من ؟ أين يقع هذا السجن المسمى " بر بر وس "؟ فقد رنّت في أذنها أسماء أخر ى على غر ار سجن "سر كاجي" بحر وفه الحادة القاطعة و علمت أخير ا أنها أسماء تر كية، وأن سر كاجي وبر بر وس يعينان نفس المكان. إن مثل هذه الر غبة في المعر فة هي التي كانت تدفع بها إلى التقر ب من زميلاتها في الدراسة. كان من بين هذه الز ميلات تلك التي نقلت لصديقاتها أن عبان رمضان عاد أخيرا إلى الجزائر، فناولت الفتاة الشابة التلمسانية ما كانت تر غب فيه من معلومات وأخبار:

- تبعا لذلك الإضر اب كان هناك قمع شديد دام أشهر ا عديدة. لقد مر على هذا الأمر أربع سنو ات.

عندما أُطفئت مصابيح المر قد أعلمتها زميلتها أن المناضل الكبير ألقي به في غياهب أحلك زنز انة لسجن سر كاجي، وقد لقي رفاقه نفس المصير، فاستنكر ت عويشة تلك الأخبار أشد الاستنكار حتى إن ثائر تها ثارت فارتعش جسمها وصوتها وكذلك جفو نها ويديها. طيلة الحديث الذي أخذ وقتا طويلا من الليل، أحست عويشة بفو ران الدم يسر ي في عر وقها غيظا وألما لما جر ى لبني وطنها المضر بين الذين وهنت أجسامهم و تألمت.

- ولكن كل ذلك لم يجد نفعا، واصلت محدثها بنو ع من الجذل والمر ح.

أسرعت عويشة تسألها:

- كيف ذلك؟

- بالرغم من أنهم فرقوه عن رفاقه الذي حُوِّلوا إلى سطيف، فعظُمَ تأثيره عليهم وزاد. تصوَّري! إن قدامى المسجونين معه كانوا محروسين عن قرب، مُهدَّدين في كل حين، ومع ذلك كانوا يقومون بإصرار وتحد كل يوم الجمعة بعد الصلاة بترديد الأناشيد الممنوعة، مما أهاج إدارة السجن وأغضبها.

*

في سكون الليل، أعادت عويشة على نفسها ما قصت عليها زميلتها كلمة كلمة. تصورت [illegible] عبان رمضان في ذهنها إنسانا صارما، مداوما على العمل، فك[illegible] في بسالة أصدقائه وجرأتهم. لقد ذكرتها مواقف هؤلاء الرجال ما كانت تلقته في دار الحديث في دروس التاريخ عن بسالة المقاتلين المسلمين الأوائل في فتوحاتهم الباهرة. لكن أبطال ابريل ١٩٥٥ كان عليهم أن يتصرفوا بطريقة أخرى ومن أجل هدف آخر: استعادت الأرض المسلوبة منهم والتحرر من عبودية الاحتلال واسترجاع أملاكهم.

أحداث أبر يل ١٩٥٥

في زاوية من المر قد، بين صفي الأسر ة المنضدة وفي رحـــاب ضو ء خافت واقع تحت نافذة مسيحة، حاولت أربع طالبات فك كلمات وثيقة كانت قد وصلت إلى أيديهن يكاد لا يبين ما جاءفيها. كانت عويشة هي التي قامت بالقر اءة بصوت منخفض يكاد لا يسمع:

« أيها الشعب الجز ائر ي! جيشك جيش التحرير الوطني يكافح منذ خمسة أشهر من أجل أن تستعيد الجز ائر كر امتها، وحر يتها، وسيادتها. » سدت هذه الكلمات حنجر ة الفتاة، و تحولت من حـــروف ونفَس إلى رصاص ونار أشعلا قلبها ورئتيها أيما إشعال: « إن النجا ح مر هون بمشار كة جميع الجز ائر يين ووقوفهم إلى جنب القوات المكافحة التي قـــررت وصممت على مو اصلة الكفاح حتى تنتصر القضية الج[illegible]ة ...». اســـتعادت الفتاة أنفاسها، فقد خنقتها الكلمات الأخير ة، ثم [illegible]معت قواها وواصلت: « نظّم نفسك والتحق بصفوف جبهة التحر ير الو طني، الهيئة السياســـية الو حيدة التي تؤيد الجيش وتؤ ا زره. هناك لجان في كل ربـــو ع الوطن. أغلب المهاجر ين إلى فرنسا التحقوا بالجبهة، وكذلك المغتر بون المو جودون في الشرق الأوسط هم أيضا أعلنو ا تأييدهم لها. أيها الجز ائر يون! تعالو ا بكثرة من أجل تقوية صفو ف جبهة التحر ير الوطني! دعو ا تر دداتكم واتر كوا

من الآن فصاعدا أصبحت الفتاة تدري ما تصنع، وخرجت من ذلك التيه الذي وجدته أول مرة حين قدومها إلى العاصمة، لقد أصبحت تعلم أن هناك جيشا للجزائريين يحارب الفرنسيين علنا، وأن له هدفا واضحا يريد الوصول إليه مهما كان الثمن وهو تحرير الوطن. إن ذلك النداء الذي قرأته على مسامع صديقاتها يحثها على الالتحاق بصفوف المكافحين، أضحى يؤرقها ويسهرها الليالي ذوات العدد، ويجعلها تتساءل طيلة تلك الليالي متوقفة أمام كل كلمة قرأتها، عن أولئك المكافحين الذين يكوّنون الصفوف المقاتلة، كيف استطاعوا اللحاق بمعاقل الكفاح؟ من قادهم إليها؟ من نظمهم؟ من سلحهم؟ كيف يعيشون حياتهم اليومية؟ كانت تتساءل وتتساءل وكانت [illegible] أحست بضربات قلبها تخفق بشدة لعدم وصولها إلى أجوبة [illegible]ها، وتريح نفسها.

إن تلك التساؤلات كانت تخيفها وتتيه بها في مختلف أودية القلق والهواجس، لكنها بعد ذلك وصلت إلى قناعة جازمة هامة لا محيد عنها أن تتخذ قرارا لا رجوع عنه: اللحاق بصفوف المكافحين في الوقت المناسب.

أحداث ٧ ماي ١٩٥٦

في تلك الليلة لم تجد عينا عو يشة إلى الكر ى سبيلا، لقـــد أعادت إلى خيالها شر يط أحداث ما جر ى في ذلك اليوم ٧ ماي بكل تفصيل: دبت الحر كة فجأة في الساحة القر يبة من مر كز الشر طة بجموع المو اطنين الذين انضم إليهم طلبة الجامعات والثانو يون من جميع الشوار ع ومن كلا الجنســين، ومن مختلف الأعمار. لقد بدا لها من جديد سما ع صوت الجر حى الشباب الطويل المتو اصل وسط الازدحام، والضر بات الموجعة القاتلة للشرطة التي كانت تضربهم بالهر اوات، فاقتر بت منها زميلة لها في الدراسة وقــالت لها بقلق:

– هناك العشر ات من المتظاهر ين اعتقلو [illegible]

حدقت عويشة في وجه زميلتها مليا، فق[illegible] الز ميلة أخ يعمل في الجامعة التي انطلقت منها الأحداث، هو الذي اخبر ها.

– مادا سيكون مصير هؤلاء المعتقلين يا إلاهي؟ تساءلت الشابة التلمسانية.

بعد صمت قليل، أز احت عويشة عن ذهنها مثل هذا التســاؤل الذي رأت فيه عدم جدوى بما أن العمليات، والكمائن، والمواجهات، وما يتبعها من تضحيات، هي السبيل الو حيد لر بح القضية النبــيلة والوصول إلى الحر ية والاستقلال، فدلك الهدف يمحي كل التساؤ لات.

النداء المؤسس

أقل من خمسة عشر يوما بعد: ١٩ ماي ١٩٥٦).

كلمات أخذت تدور في جميع الر ؤوس، وتتجه مباشرة إلى القلو ب فتفتح جميع أبو اب الآمال لأنها كانت تشق طر يقـا لا تر دد فيه ولا تحفُّظ، ولا ريبة فيه ولا شك. فكرت عويشـة كثير ا في الآونة الأخير ة على انفر اد، وذلك حتى لما كانت ضمن صديقاتها بالثانوية. و في ذاك اليو م كان شـيء يشبه العزم والصر امة يعطي يقينا لأفكارها وطاقـة كبـيرة لنبرة صوتها، ومتانة لاستدلالاتها، فاستعادت لنفسها فقر ات كاملة من تلك الو ثيقة التي كانت تدور وسط الطلبة الجامعيين قبل أن تلحق بثلامدة الثنو يات، فكانت تر دد بدون أن تحر ك شـفتيها: «يجب إخلاء كر اسـي الجامعة و تر كها واللحاق بالجبل» [illegible] تلك الجملة وهي مقـتنعة تماما بـالأمر الذي تحتويه، مما أعطى للكلمات متانة جلمو د.

Heurts entre étudiants et service d'ordre hier soir autour du monument aux morts et devant le commissariat central

13 étudiants et 6 policiers blessés
26 manifestants arrêtés



فتحت مرة أخرى النداء و بدأت تطالع فيه بينما جلست فتياة بالقرب منها: «يجب إخلاء كراسي الجامعة وتركها واللحاق بالجبل، يجب اللحاق بكثرة بجيش التحرير الوطني وهيأته السياسية جبهة التحرير الوطني. أنتم أيها الطلبة و المثقفون الجزائريون، أمام العالم الذي يتابع كفاحنا، أمام الأمة التي تنادينا، أمام مصير وطننا البطولي، أنكون خونة؟» .

الحجة صحيحة ومتينة أقنعت الفتيات، فأصبحت مهيأة تماما للاندفاع في الاتجاه الذي سطرته تلك الكلمات التي استمعت إليها بنشوة وإعجاب عظيم، فصارت جميعهن تبصر بنفس النظر تملأه شعلة واحدة: «فعلا، بمزيد من الشهادات لن تكون جثثنا أفضل! ما نفع الشهادات وعمق الدراسات وشعبنا يكافح بكل بطولة، وأمهاتنا، وزوجاتنا، وأخواتنا يُغتصبن، وأولادنا وآباؤنا وشيوخنا يَخترق أجسادهم الرصاص، وتحرقها قنابل النابالم» .

حين تكون الكلمات مرتبطة بحقائق لا جدال فيها، تكون بمقدورها نفخ قوة معنوية تجعلنا نجتاز كل الحواجز والمخاطر، فكذلك كانت تلك الكلمات.

العودة إلى تلمسان/ الفكرة تتحول إلى أفعال.

سبب قتل الدكتور بن عودة بن زرجب، أول طبيب شهيد في الجزائر، مظاهرات حاشدة في تلمسان، فاشتد نشاط الخلايا الثورية المغروسة في

المدينة. اعتقال قدامى مشايخ المدرسة والزج بهم في سجون مخيمات سان لو، آلم عويشة وأحزنها، فظلت تروي لأهلها فضائل هؤلاء المدرسين وقيمتهم وقيمهم العالية، وتروي دلائل بسالتهم وشجاعتهم والتزامهم من أجل تحرير الوطن. عند عودتها إلى تلمسان قررت عويشة قرارا حاسما لا تردد فيه ولا تحفظ: الاستجابة لنداء الجبهة، فأخذت تبحث عن سلاك يوصلها إليها، لكن القمع الشديد من طرف البوليس جعل ذلك المسعى معرضا للخطر. لم يكن الخوف أو التعذيب الجسدي يشغلها ولا يُثنيها عن هدفها، بل كانت تخشى إذا ارتكبت خطأ ما أو تلبُّك، أن تقع في قبضة المستعمر فيذهب أملها في الكفاح أدراج الرياح، فكانت الرزانة عندها سببها الحذر والحيطة وليس الخوف والجبن.

عيش لا يطاق

كان على عويشة في ذلك اليوم أن تذهب إلى عوالي إحدى صديقتها في الثانوية الفرنسية المسلمة للبنات بالعاصمة، فقد جمعتهما روابط المحبة والود من أول لقاء بينهما فهما من نفس المدينة، وزاد في تمتين ذلك الشعور رسمهما طريقا مشتركا واحدا، المساهمة في الكفاح من أجل الحرية والاستقلال.

كان شـــار ع ابـــن خميس الذي يتقـــاطع مع ذلك الذي يؤ دي إلى الجامع الكبير يعج بـــالناس. و كان مدخل الدرب المسمى الحاج أمين مر اقبا مر اقبة شـــديدة من طر ف الشر طة الفر نسية، بعضهم بـــز ي رسمي والآخر بزي مدني، تمر كزوا على امتداد المسلك الضيق المؤدي إلى الطريق المسدود، و كان يمكن الوصول إليه عن شـــار ع أو جين إتيان أو عن شار ع ابـــن خميس. على مقر بـــة من هذا المنفذ الأخير أقام البوليس حـــاجز ا دائما يفصل بـــين جهتين: الأولى تقـــيم فيها العائلات العر بـــية، والأخر ى وسط المدينة أين يقيم المستعمرون وتو جد فيه المقـــاهي الفخمة والمتاجر الفاخرة





الجامع الكبير / تلمسان

بواجهاتها الز جاجية الخلابة البراقة، المتناقضة [illegible] لاماتالبؤس والشقاء المو جودة في الدر ب الملاصق لها، در ب الأهالي.

كانت قوات الأمن الداخلي تذر ع ذلك المكان الفاصل بـين المنفدين جيئة وذهابـا، وبجو ار هما تو قـف العديد من سـيارات البـوليس أمام منازل موريسكية، فدُفع فيها رجال بكل قسوة وعنف. علمت عويشة من مار كان



يتابع الحدث المأساوي، أن ذلك رد فعل من البوليس لعملية جر ت منذ ثلاثة أيام، حين قام أ[illegible]دائيين بإلقاء قنبلة على الحاجز الدائم. إن الكولو ن - أبادهم الله ج[illegible]ى يقين من أن الفدائيين مو جودين على سطوح المنازل المطلة على شار ع ابن خميس!

شهادة

السيدة خيرة بـ ، ٧٦ سنة)

كنت في ذلك اليوم في الدرب المذ كور، وبـالذات في الفُرن العتيق الذي يملكه الحاج عبد الله بنداهمة رحمه الله. ولما قام ليناولني الخبز دخل أربعة من البوليس بزي مدني وعلى وجوههم علامات الاكفهرار، فقال أحـدهم بحدة وجفاء للعم أحمد، القائم بإدخال الخبز إلى الفرن لطهيه:

- من المدعو عبد الله ؟

لم يجد العم أحمد جوابا وقد فوجئ بالسؤال فنظر إلى صاحب الفرن الذي قال:

- أنا ...عبد الله



- دع الخبز الذي في يدك واتبعنا حـــالا و أنت، أخرج من حـــفر تك!

أضاف الشر طي يكالم العم أحمد

تقول السيدة خير ة: "ثم وجدت نفسي وحيدة أمام باب الفر ن العتيق برهة من الز من، ثم أخذت خبيز اتي الأربعة و رحـــلت، ومن ذلك الحين لم أر الحاج عبد الله طيلة مدة الحر ب."

*

وصلت عويشة إلى صديقـــتها عوالي وصورة الر جال الذين كانو ا يُدفعون بشدة إلى داخل سيارات الشرطة لا تز ال ماثلة أمام عينيها، وبالقرب منهم شباب كانوا يتابعون المشهد بزمجرة صماء، وكذلك نســـاء كُنَّ ير تدين الحايك الأبيض بياض الثلج سالت من أعينهن دموعا غز ير ة.

أخبرت عو الي [illegible] أحد رجال الاتصال المناضل في الجبهة قـــدم من ندرومة وطلب [illegible] الانضمام إلى جيش التحـــرير. الله أكبر! ها هي السلاكة التي طالما بحثت عنها عو يشة قد بانت. إنها فر صة فر يدة لا يمكن إضاعتها! عمت علامات الفر ح والانبساط أسارير وجهها فأســـرعت تقول بإصر ار ينم عن مو قف صارم:

- سأذهب .. سأذهب معك.

إنها الخطوة التي تبين الفر ق بين الإرادة والر غبة. فما أعلنته في ذلك اليو م

أمام صديقتها لم يكن كلاما تلقائيا، بل كان منطلقه من عز م حقيقي. لقد بدأ قرارها بالعز م على الذهاب، فصارت بـــعد ذلك جاهز ة أتم التجهيز لتلتزم بما قالت وتعمل بكل ما في وسعها لتحقيق هدفها.

طيلة إقامتها بالعاصمة و بـــعد صدور نداء ١٩ ماي ١٩٥٦، وطيلة زمن قصير كانت عويشة ضحية لعبة الممكن، فجعلت لنفسها بدو ن وعي منها تو از نا بين ما كانت تر غب فيه وتطلبه، وما كانت تر هب منه وتخشـــاه، وفي هذا التر جيح كان يمكن أن تنزلق في الحياد، ولكنها كانت في مو اجهة مع ذاتها، فهي الحاكم الو حيد على نفسها وهي أكيدا تدري جيدا بما تر يد.

لكن بعد أن أعلمتها عو الي، أخذت إر ادتها شكلا آخر، فليس نداء الجبهة الذي حر كها وحده، بل إنها وجدت الس[illegible] التي ستقودها إليها. كانت الوثيقة مو جهة إلى شعب لن تكون عويشة [illegible] منه، لكن الر جلجاء لالو اتي ير غبن في الكفاح قلبا وقالبا ليريهم [illegible] واجب اتخاذه، فكان يحمل رسالة ممضاة من صديقـــة أخر ى -أنيســـة درار- التي كانت تضمن صدق المبادرة. على عكس نداء الجبهة الذي يشمل شعبا بأكمله، فالر سالة كانت تستهدف فتيات معينة مذ كورة بكل وضوح. كان من الطبيعي أن تخبرعواليالر جلبر غبة زميلتها الصارمة في الانضمام إليهم.

وقائع : ١٢ أوت ١٩٥٦ .

تهيَّأت الشابـتان للسـفر إلى مغنية على متن القطار. كانت الحرارة مرهقة، لم يكون هناك الكثير من الناس في المحطة، و بعد قليل ازدادت حدته أزيز القطار عند انطلاق محركه. في غمرة ذلك الأزيز ارتفعت أصوات القـاطرة، وصافرات العمال على الرصيف.

كانت الشمس تضرب المركبـات بشـدة حديد فولاذ، خارقة جدران القطار لتستوطن جماجم المسافرين، .وكان الهواء شبيها بـنار تلحس الوجوه التي كانت تقطر عرقا غزيرا. عند اقتراب القطار من المراكز السكنية، كان يطلق صفيرا حادا تتجاو [illegible] الجبال بصدى يدوم بعض الثوا [illegible] حاوزه صوت العجلات الحديدية. مجوعـة مـن الأطفال حـفاة الأرجل، حليقـي الرؤوس، مكسوين بجلابيب خفيفة، يجلسون على

ربوات صخرية ينظرون إلى القطار بانبهار، ويلوحون بأذرعهم بحركات واسعة إلى راكبيه، لقد كان البؤس يُقرأ على أسارير وجوههم بوضوح، قد اختلط فيها الألم والخوف في ذات الوقت.

لم يكن على الرصيف في مغنية إلا القـــليل من الناس ينتظرون، وكان البوليس يدقق النظر في المسافرين الذين يترلون من على القـــطار. كانت تسمع صيحات حادة يطلقها أطفال ونساء أوروبيون، في حين كان ريح ساخن يحمل صرير قطار آخر مملوء بالجيش يستعد لمغادرة المحطة، منهم من كان يلوح بيديه لامرأتين واقفتين على الرصيف.

عندما خرجت عويشة من المحطة أبصرت صف من الشاحنات العسكرية يمتطيها مجموعة من الجند المسلحين تحت أنظار قائدهم، فتساءلت بأســى بالغ إلى أين هم ذاهبون، وأي عملية قذرة سيقومون بها، وأي مأساة تنتظر الأهالي الأبرياء في المنطقة. دارت تلك الأ[illegible] رأســها وهي تتذكر أولئك الصبية المثيرون للشفقة الذين رأتهـ[illegible]ـش القطار.

*

كانت عائلة بوشنافي تنتظر الشابتين عند نهاية المحطة، وقامت بــتضييفهما مدة أسبوع كاملة، وفي تلك الأيام لم يكن يسمع حــديث في مغنية غير ما قامت به مديرية الأمن الإقليمي وما كان يجري في سجن المدينة. فقد كان

مدير السجن يجبر السجناء على الإمضاء في سجل المفرج عنهم قبل أن يقودهم تحت الحراسة المشددة إلى مكتب البوليس القضائي المجاور، وهناك يُعَرَّى المساكين كليا، ويعاملون معاملة بشعة مرورا بالضرب بالهراوات، إلى تعذيبهم بآلات كهربائية على مختلف أطراف أجسادهم، إلى قلع أظافرهم، إلى كيهم وكل أنواع العذاب.

عندما كان الناس يذهبون إلى المسجد للصلاة، كانوا يدعون الله تعالى أن يخلص إخوانهم من أيدي أولئك المجرمين.

*

ندرومة:

استقلت عويشة وعوالي بعد ذلك الحافلة نحو ندرومة عاصمة ترارة الواقعة على الجهة الشمالية لجبل فلاوسن، المحاطة بسلسلة جبلية جذابة، وهي الممر بين [illegible] هراني والمغرب الأقصى مما جعلها موقعا استراتيجيا ها[illegible] ت أزقة ندرومة في ارتفاعاتها ومنحدراتها ودروبها تذكر بتلمسان، أضف إلى ذلك طابعها العريق ومحافظتها على عاداتها وتقاليدها أضفى على الشابتين نوعا من الانسجام السريع جعلها تشعر كأنها ليست غريبة فيها. لم يدم بقاء عويشة ورفيقتها عند "أ.درار" التي استقبلتهما في محطة الحافلات إلا أياما معدودة، ثم لحقهما رجل الاتصال إلى ندرومة لمرافقتهما بنفسه إلى

الجبل، لقد كان رجلا يملك من الخبرة ما أهله بأن يقوم بمهمته على أحسن ما يرام من معرفة بالمسالك، وكيفية تخطي المصاعب.

وقائع : ٢٣ أوت ١٩٥٦

كان على الفوج أن يقوم بمسيرته في جهات جبلية مهجورة ومعزولة مليئة بالمخاطر، يصعب خوضها، ويعسر الصبر على احتمال متاعبها. فمعقل الثوار كان هناك بعيدا في إبط سلسلة التل التي كانت ارتفاعاتها تناطح السماء شرق المدينة العتيقة عند جبل فلاوسن، كانت المسيرة شاقة في تلك الأماكن المليئة بالنباتات الشائكة، وكانت عويشة تقول في نفسها إنه ينبغي عليها أن تقاوم التعب والمشقة مثل ما كانت تلك النباتات تقاوم الجفاف. كان الجو مليئا بالروائح وصرير الحشرات المستمر يشبه طقطقة معدنية. لم تكن عويشة متعودة على المشي السريع على أرض مثل هذه، فأحست بالضغط الشديد



يتسلل إلى صدرها فيؤلمها، فكانت [illegible] بمهل وانتظام حـــتى تخفف منه، وكانت أحيانا تقبض أسنانها بقوة حتى تتقدم رغم العناء.

جبل زكري : ٢٩ أوت ١٩٥٦

ضاعف رجل الاتصال من يقظته عندما حدثت انفجارات مكثفة شديدة

غير بعيدة عنهم، علموا بعدها أنه قد وقعت معركة جبل زكري العظيمة التي واجه المجاهدون فيها الجنود البحارة الذين كانوا يراقبون الجنوب الغربي للغزوات. بدأت [illegible] صباحا، وكانت المواجهات شرسة عنيفة، نظرا لوعورة المكان الجبلي الصخري، والانحدارات الخطيرة، لكن هذا النوع من التضاريس كان في صالح المجاهدين لمعرفتهم الجيدة بخصوصياتها، وتعوُّدهم

على التنقل فيها. عندما دخلت دبابات المستعمر في العملية، كانت تساندهم المروحيات في هجومهم، وكان دوي القنابل يسمع على بعد كيلومترات حوّل المنطقة إلى جحيم، أما الأهالي فقد جُمِعوا في أكواخهم فأصابهم الشلل وأبناؤهم قد رُوِّعوا فالتزموا الصمت التام.

كانت عويشة ورفقاؤها يسمعون دوي انفجارات القنابل ويشاهدون ذهاب المروحيات وإيابها المستمر، فكان عليهم الأخذ بالحذر الشديد مخافة أن يُكشفوا. خف تبادل النار بالأسلحة الخفيفة قليلا حتى يُفسح المجال للدبابات والطائرات ليكملا مهمتهما القتالية. رأى رجل الاتصال أن الفرصة مواتية للتقدم نحو القسم العام للقطاع، لانشغال الطائرات وهي تساند قواتها على الأرض في مواجهتها مع جيش التحرير، وبعد يومين من السير الشاق وصل الفوج إلى الهدف المحدد.

مركز القيادة: الحنصالي

طيلة مدة الشهرين اللذين قضتهما الشابتان في القطاع الذي كان يقوده الحنصالي، أخذت عويشة توقن أنها ستكون حقا كما تمنت من قبل، أي عضوا نشيطا فعالا في حضن جيش التحرير الوطني. في هذه الفترة من التكوين بدا لها أنها تعيش مرحلة انتقالية بين ماضيها كطالبة في الثانوية، وحاضرها في



٢٩ أوت، معركة جبل زكري

من الأرشيف الفرنسي



صفوف المجاهدين. وعندما كلفها القائد كباقي رفيقاتها بتعليم بعض الفتيات اللواتي احتضنها جيش التحرير لإنقاذها من شر الجيش الفرنسي المتواجد بالغزوات. أدركت تماما أن انتماءها للمجاهدين يعني قبل كل شيء الانتماء لثقافة خاصة أين البحث عن العلم والقدرة على التبادل يكونان قاعدة أبجدية وأساسية. وبينما كانت تقوم بعملها، اتضح لها أن معالجة الجرحى، أو الكفاح المسلح، أو تعليم الشباب، أعمال قيمتها متساوية. إن الجبل لقنها دروسا لم تكن تتصورها من قبل.



٢٩ أوت، معركة جبل زكري

من الأرشيف الفرنسي

بعد شهر ين عند غر وب الشمس وبدء إر خاء الليل سدوله على المخيم، قدم أحد المسؤولين فتحدث طويلا مع الحنصالي، ثم تو جه كلا الر جلين إلى عويشة وعو الي وفتاة تكبر هن سـنا، فأعلماهنّ أهن سـيذهبن إلى المغر ب لإتمام تكوينهن.

نوفمبر ١٩٥٦ : المغر ب

كانت بر كان أول مر حلة بالأرض المغر بية، تابعت فيها الفتيات الثلاث مدة شهر ين تكوينا في الشبه الطبي، ثم بعد ذلك بعثت عو يشـة وعو الي إلى وحدة ليتكو نا سياسيا وعسكر يا على يد السي عبد الحميد بوصوف.

في تلك الفتر ة ا[illegible]ت عويشـة أسبـاب انتفاضة مو اطنيها، منذ الثو رات الريفية حتى الم[illegible]نية. لما انفجر الغضب في ثو رات عظيمة شملت الجبال والسهول و أ[illegible]بطالا مقبلين على التضحية بنفوسهم، أر ادت فرنسـا أن تخنق ذلك الهيجان فقابلته بحمامات الدم والمجازر الر هيبة في حـق النسـاء والأطفال والشيو خ. عر فت عويشة أن أعسر الأحداث التي شتتت إخو الها، أسباها واضحة وضوح الشمس: تجو يع الفلاحين مثلا و الر مي هم في مر اكز الاستعمار، وآخر ون نهبت منهم أملا كهم فحـاولو ا اسـتر جاعها وهم يشعرون بيأس شديد، و منهم من طرد في المناطق الصخر ية الوعر ة،

وآخرون أيضا ثاروا ضد نظام يجند أبناءهم عنوة و يزج بهم في جبهات القتال إبان الحرب العالمية الأولى والثانية، حرب لم تكن تعنيهم لا من قريب ولا من بعيد.

كان ما يسري عنها ويذهب عنها قليلا ذلك الضيق هو تخلص المغرب الأقصى من الحماية الفرنسية، وإنعام الله تعالى على الشعب المغربي بالنعمة الكبرى: الحرية.

في نهاية ذلك التكوين نظم امتحان لمنصب مراقبين، أشرف عليه العقيد بوصوف، ورفاقه الرواد بومدين وشعبان وناصر من الولاية الخامسة. عينت عويشة حاج سليمان في المنطقة الثانية التي كانت تشمل ندرومة وضواحيها، فغادرت المغرب بعد الليلة الثانية وتوجهت إلى المنطقة المعينة يرافقها جنود مكلفون بالأسلحة والذخيرة.

أواسط ١٩٥٧

عندما كانت تقوم بمهام المراقبة مع من نقيب المنطقة والمسؤولين المحليين، انطبع في ذهن عويشة التي أصبحت تدعى من الآن فصاعدا باسمها الحربي فوزية، أنه لم يكن لها من قبل عمل أهم من ذلك الذي كانت تحققه في جبال المنطقة الثانية. كانت الشمس تحرق جفونها و هي تسير فوق النباتات

الشائكة أو تتسلق على قمم جبال كانت تبدو قبل ساعتين بــعيدة. تتوقف بضع دقائق و رفقائها حين يجدون منبـــعا ير تو ون منه ثم يواصلون الطريق على بعد خطوات قصير ة الواحد تلو الآخر، مشكلين صفا، وهم ير اقبـون الضواحـي بحذر. كانت تحرص على معر فـة كل ما يتعلق بجيش التحـــرير في الميدان العسكر ي: السلاح، العناية، الغذاء، النظام، معنويات المجاهدين وما كانو ا يعر فونه عن تر تيبـات العدو، وإمعانا منها في تأدية مهامها كما ير ام، كانت تُدَوِّن كل شيء من أعمال تدار على يديها لتبـعث بتقارير وافية عنها إلى القيادة العامة للو لاية الخامسة.



هو ار ي بومدين



عبد الحفيظ بو صو ف

وحين يقبل الليل، كان الحديث يدور خاصة حول ما يجب تطبيقه من مطالب وأوامر مؤ تمر الصومام. كانت الفتاة تعرف أن تجر بة جيش التحر ير على الميدان قصير ة، و هو يواجه جيش عدو قو ي عصر ي يملك من القوة الكبيرة ما يملك، لكنها كانت تر ى على وجوه المجاهدين علامات لإرادة من حديد، فتدرك لماذا أولئك البواسل رغم قلة السلاح والتسليح كانو ا يحققون انتصارات كبيرة على العدو بعملياقم القتالية في الجبال و العمليات الفدائية في المدن.

لما كانت تتكلم عن ذلك الحدث العظيم و هو مؤتمر الصومام الذي انعقد بعد عشر ين شهر ا من بداية الحر ب، كانت الفتاة تحاول معرفة ما ير ن في قلوب المكافحين. فكانت إر ادقم قوية في الوصول إلى الهدف المنشود الذي [illegible]ود كل حر كاقم و هم متيقنين انه ليس لو جود المستعمر [illegible]م أية شرعية، فطر ده منها حق و واجب. سطر المؤتمر بر نا[illegible]ق ذالك المسعى، فر مت عويشة بنفسها في المعر كة روحا و جسدا دون تر دد أو تمهل.

العطلة المرضية

عند قيام الجبهة بز يار ة طبية، أظهرت الفحـــوصات أن عويشــــة /فوزية لا يمكن أن تتابع مهامها، فبعث بها إلى وجدة لتلقي العلاج. أقلقها هذا الصنيع وأحزنها، فهاهي الآن تر قد في المستشفى بلا حر اك، بـــعد أن كانت أيامها مليئة بالنشاط الكثيف. كانت أحيانا تجلس على الســـرير و هي تنظر إلى نقطة غامضة و صور تتسلل بسرعة أمام أعينها: صديقتها عوالي، حنصالي الذي استقبلها بكل تر حاب حين إقامتها في الجبل، وعبد العز يز بوتفليقة الذي تلقى هو الآخر مثل تكوينها. كانت تسر ح بخيالها تستحضر جبـــال فلاوسن عندغر وب الشمس و الأراضي العارية حين يعم الظلام. ثم كانت تجد خيالها يقودها إلى مشـــهد القـــر [illegible] كان يضر ب العدو فيها النار فيحرقها، و إلى الدواوير والأرياف حيـ[illegible]ـب والدمار والبؤس والشقاء، دون أن يغفل خيالها عن غلاظ القـــلوب قســـاة النفوس من الدر كي إلى الناظور، إلى حارس الغابات، إلى جامع الضرائب المتصرف في أرزاق الناس بشكل مشين بشع، كان ذلك الخيال وما يحضره من مشـــاهد مؤلمة يصير كرة في حلقها كبير ة تكاد تخنقها.

فجأة غز تها ثورة زلز لت كيانها وأسرعت بنبضات قلبها، فقد أحست في عمقها ضر ورة بل وجوب صعود الجبال تشارك في رفع معنويات شابات

صور الحرب

من الأرشيف الفرنسي





بـــعضهن في مثل عمر ها، ١٧ ســـنة، فمعالجة الجر حـــى و التخفيف من آلامهم و روعاتهم جعلتها لا مبالية بخطر طائر ات العدو و هي تحلق فـــوق الجبال و لا بـــالغارات الو حشـــية التي كانت تحول الحياة إلى كابوس.

فلم تكن حينها تبالي بصفير الر صاص يمر بالقرب منها، و لا بتفجير ات القنابل تهز الأرض من حولها، فتســـر ع إلى إنقاذ الجر حى و تساعدهم بقلب كله انشـــر اح و تعاطف، ومنهم من كان يسلم الروح تحت نظر ها مما كان يؤ ثر فيها أيما تأثير:

" أنا هنا على سر ير في المستشفى، ومن يدري لعل الموت يلاقيني هنا - قـــالت عويشة ذلك بصو ت منخفض - لقـــد مرت رصاصات بجانبي حتى كادت



تلامسني، وفجر ت قنابل على بعد أمتار مني، لكن الله تعالى لم يكتب لي فضل الموت في الكفاح".

أتمت عويشة كلامها هذا ،وإذا بز لز لة قوية تهز كتفيها، وتحدث في نفسها تساؤلا رهيبا: " أأكون قد نطقت بما لا ير ضي الله ؟" قالت ذلك و القلق يعتصر قلبها وتحاول إبعاد شناعة هذه الفكرة من أمام عينيها بعد أن أخلدت إلى صمت مميت ،وكأنها قد أذنبت وحُكم عليها. ظلت على ذلك الحال



بضعة دقائق، مكتئبة حزينة و في نفس الوقت غاضبة على نفسها لرفضها قضاء الله و قدره. [illegible] ذلك انبسطت أسارير وجهها تعلن تحررها من تلك الفكرة، وهي [illegible]لك المقولة الشهيرة لخالد بن الوليد القرشي صاحب رسول الله [illegible] عليه الصلاة والسلام، وهو على فراش الموت: "لقد خضت معارك عدة ابتغي الشهادة، وما من شبر في جسمي إلا فيه ضربة سيف، أو طعنة خنجر، أو رمية سهم، وها أنذا أموت على فراشي كما يموت البعير".



رددت عويشة مقولة القـــائد خالد بـــن الوليد الفاتح العظيم كلمة كلمة والدموع تجري على خديها بانهمار، ثم ا[illegible] اه القبلة وكلها سكينة، ورفعت يديها بكل خشـــوع إلى الله [illegible] وتتضرع إليه: "يا إلهي العظيم أمِدَّني بقوة من عندك تُرجعني إلى الجبل! وبلغني كرامة الشـــهادة وسلاحي بيدي! إلهي اغفر لي أنا الأمة الضعيفة الذليلة إن كنت قد تجرأت وطلبت منك أن تبلغني ما تمناه عبدك خالد بن الوليد و لم تبلغه".



أصر ت عويشة على العو دة إلى الجبـــل رغم اعتر اض الطبـــيب المعالج لها، والتحقت بالناحية ال[illegible] معقلها الذي احترقـــت شوقـــا إلى العودة إليه، وحملت السلا[illegible]فيها تو اصل ما التز مت به مهما كانت التضحيات جسيمة.

الشهادة: نوفمبر ١٩٥٧ ،بنواحي مغنية

بجوار مغنية على المشهد الطبيعي للجبال المتباينة مع السهول بين بني منقوش وعطية، هناك حيث لا تو جد قمم جبال عالية، في حين تكثر مغارات تتيح



ملاجئ مؤقتة لأفر اد جيش التحر ير

الوطني.

في ذلك اليوم من نوفمبر ١٩٥٧

قامت القوات الفر نسية بعملية قتالية

كبيرة، ضمت الكثير من الحاميات



العسكرية المتمر كزة بقطاع مغنية،

والهدف منها تطويق دواوير وجبل

ومغارات مشتبه بإيو ائها لستة

مجاهدين.

وهذه العملية كسائر العمليات



الأخرى التي شنت على المجاهدين في

السنوات الأولى من الحرب، جاءت

بناء على معلومة تأتي من أيٍّ كان.

أعطى الملاز م الذي كان يقف أمام

الشاحنة المحملة بالر جال والعتاد

التعليمات الأولى:



- يجب أولا تطويق جميع القطا ع.

مفهوم! ثم نتبع ذلك تمشيطه كاملا.

حر كت الشاحـــنات محر كاتها محدثة أصواتا مصمَّة للآذان، ثم انطلقـــت متقدمة تسير في الطريق المعبد قبل أن تدخل بعد ساعة طريقا ضيقا ير تفع تارة على مئات الأمتار، وينخفض تارة أخرى فصار سلكه والســـير عليه شيئا عسيرا. عند الوصول توقفت الشاحنات، ثم صاح الملازم في جنده:

- انز لوا!

عين رئيس القافلة مجموعة من الجنود، ثم قال:

- ابقوا أنتم مع السائقين لحر اسة الشاحنات. كونو ا شديدي اليقظة مفتحة أعينكم في الجهات المحيطة بكم، فهم ير اقبـــوننا جيدا وقـــد أعطوا كامل المعلومات عن تمر كز نا ،و كامل الاستنفار لمو اجهتنا.

في الحين بدأ التمشيط، فلم يترك في طر يقهم كوخا أو بيتا لأناس بؤساء إلا فتشوه تفتيشا [illegible] أعطي الأمر للتر ول إلى إبط الجبل أين تو جد مغارة مفتو حة. لم [illegible] واســـعا، لكن كما قـــال لهم الملاز م، دهاليز ها الداخلية تكفي [illegible] جماعة من الر جال.

في مدخل المغارة وُجد منفذان محفوران يقمعيا الشكل.

- هنا! حسب معلوماتنا يجب أن نأخذ حذرنا هنا...

قال الملاز م ذلك ثم استأنف كلامه:

- نحن نعر ف أن هده الجماعة تكسب قاذفات صوار يخ، إنها أسلحة حصل

عليها المتمردون منذ أيام.

أيقن المجاهدون الذين كانوا داخل المغارة أن لا سبــيل لهم لمحاولة الخروج، فقد كانت المنطقة مطوقة من كل الجهات، وأن التمشيط قــد قــطع كل وسائل المساعدة والنجدة. وهذا ما لاحــظته عويشــة وفهمته من الرجل الذي كان يحمل راديو لاسلكي وهو يحاول الاتصال بالقاعدة. لقد علمت أن المعركة التي تنتظرهم ستكون عنيفة. كما علم ذلك أيضا قائد المجاهدين الذي كان اكتشف بمنظاره المقرب المكان الذي وضعت فيه المدافع من نوع ٧٥ المخصصة لضرب المواقع الجبلية.

- لقد وضعوا فوهات النيران بعيدة عن بعضها البعض. قال القائد.

ثم علق قائلا:

- متفرقة بـــ ٣٠ مترا.

- تماما. لقد وجهوا المدافع الأخرى أ[illegible] ير يدون أن يدركوا بـــر ميهم المغارة من الأمام وعلى الجوانب كذالك.

خلف الميدان، في أسفل رابية مغطات بنبات قصير شــائك، كانت توجد الشاحنات التي جاءت بالجنود، هؤلاء قفزوا وجروا إلى مواقعهم وراء الصخور الرمادية اللون التي كانت تملأ المكان كما أمر قائدهم. في المغارة

كانت أعصاب المجاهدين على أشدها، فقد كان الانتظار شاقـــا. ثم بـــدأ الضرب بـــثلاث رشقـــات دفعة واحـــدة نحو المغارة، فكان ذلك إيذانا بالخلاص. أخذت عويشة سلاحها الذي تستحـــوذ عليه وكانت تفضل الر شاش منه.

لقد كانت تلك الر شقـــات الثلاث مجر د ومضات نارية لامســـت الكتلة الصخر ية لمنفذ المغارة ولم تحدث فيها أثر كبير.

لما تأخر ت الر شقة الثانية، قال قائد المجاهدين:

- إن العدو بسبيل تصو يب تسديداته نحو المغارة.

تابعت عويشة قائلة:

- نعم فهو ير يد أن يبلغ الهدف بشكل أصو ب وأدق. أنظروا إليه الآن فهو يو جه جميع عتاده في اتجاه واحد.

لم ينتظر أحد المجاهد[illegible] احدة، فحمل قـــاذفة صو اريخ وخر ج إلى عتبة المغارة، وتموقع ب[illegible] ن صخر تين ثم قال::

- حتى لا يقال أنه لم يكن لهذا السلاح أي مر دو د بـــينما نحن نو اجه الموت المحتوم!

ضمت عويشة سلاحها إلى صدرها، وحر كت شفتيها بـــدعاء خالص ثم أخذت مو قعا لها وراء كتلة صخر ية كبير ة.

- هذه القطعة التي على اليمين دعها لي، ولك القطعة الو اقعة في الوسط.

قذف المجاهد بقاذفة الصواريخ بدقة بالغة جنديين فرنسيين كانا يحضّران لقنبلة المغارة بمدافع ٧٥ الموجودة في وسط الميدان، في حين أفرغت الفتاة رصاص رشاشتها على الهدف الآخر. صاح الرجل صاحب اللاسلكي، وراح يشير بيديه كأنه قد وقع فجأة في رعب وذعر. لقد قام المجاهدون بعمل رائع، وضربة معلم، لكن وضعهم ومبادرتهم قد اكتشفا من طرف الرادار، مما استدعى تدخل المروحيات ورشق فوج من العسكريين لهم بقاذفات تفجيرية بواسطة طلقات مدافع هاون. بعد مرور ثلاثين دقيقة استأنفت الطائرات والدبابات ضرباتهم القاتلة بواسطة قاذفات الصواريخ، وقنابل النابالم، تبعتهم غارة أرضية.

حين انتهت المواجهات عمد عسكريو المركز الفرنسي إلى تقييم الوضع المكتسب نتيجة ضرباتهم، فدخلوا إلى المغارة، فكانت مفاجأتهم الكبرى العثور على جثة عويشة قد اخترقها [illegible] وهي ممددة على الأرض تحتضن سلاحها الرشاش بشدة.

– يا إلهي العظيم! إنها لم تتجاوز بعدُ مرحلة المراهقة. قال أحد الجنود.

ثم قال الملازم متحيِّرا:

– شيء لا يصدق، علامة الرضا والارتياح اللذان يكسوان وجهها! كيف يمكن الموت على هذا النحو وبمثل هذا الشكل؟

ثم سكت قليلا وقال بنبرة فيها صرامة وحزم:

- لقد أخبرنا بأن داخل المغارة ستة "فلاقة"، وأنا لا أبصر إلا خمسة. لا بد أن يكون هنا في مكان ما، لا يزال حيا.

فكر الملازم هنيهة قبل أن يصدر أمرا:

- ليرجع الجميع إلى الوراء! هيا بسرعة! إذا كان "الفلاقة" هنا فإن الغاز سيخرجه مثل الأرنب!

مرت ثلاثون دقيقة بعد انتهاء مهمة الغازات، دخل رجال يحملون أدوات خاصة بالوقاية يفتشون المغارة، فلم يعثروا على جثة أخرى. ليبقى بذلك أمر اختفاء الرجل السادس، وتلك البسمة الناطقة بكل معاني الرضا والارتياح على وجه الفتاة عالقة في أذهانهم ما بقوا على وجه الأرض إذا تذكروا، أو ذُكّروا.



محل ذاكرة تفر من دائرة النسيان، تجعل من رخامها أرشيف شعب يستحيل هدمه. محل ذاكرة،متحف بطولات لمختلف الأعمار التي ىثار أسمائها المعلومة منها أو المجهولة تتعالى إلى مجال المطلق. محل ذاكرة مصنوع من رموز وشعارات وأدعية. محل ذاكرة. واجب ذاكرة.



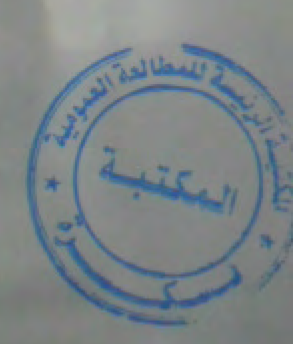
*

مثل صومعة تحمل أصواتكن في المجالات الخفية اللامر ئية، في مجموعات الصدى غير المسموعة حيث لا يُقرأ للز و لا للمكان، لأنكن من الخلود ومن المطلق.

*



وسام تد كار ي استلمه أهل الشهيدة







لا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا
بل أحياء عند ربهم يرزقون
(سورة عمران ١٦٩)

إن الشهيدات كن ممسكات بدر ع من الإيمان شبيه بالر خام الأبـيض من أحجار كم القبرية المر صوصة، فلا الر صاص المُلقى من العدو، ولا قاذفاته تستطيع اختر اقه. قبور من عاج أبـيض يضيء تحت النهار شبـيه بجبـل جليدي مذاب في بحار التاريخ اللجية، شاهدون حيث الصمت هو الكلام الو حيد.

*

نذير عائشة –سقطت في ميدان الشر ف سنة ١٩٥٧.-

على رخام أملس مصقول في بر ودته العاضة، على رخام أملس مصقول في حر ار ته المفترسة، كُتب اسمك : عائشـــة مثل نداء إلى الحياة على مذبـح البطولة.

*

لحول خضر ة – ١٨ سنة رقم ٨٢٢ .

في الاخضر ار المحيط بقبرك، في قــلـب ســـنة مقاومة، 1958 ، تاريخ مبارك من القيم والأخلاق لاسمك يا خضر ة ولمعان حياتك.

*



نصب تذكاري في مدخل المقبرة

معمرا الو حدة، متحدثا لغة الصدى، مقربا للبعد:

اسمك يا فاطمة تاريخ للمجد الأبدي.

*

طهراوي يمينة بنت أحمد–سقطت في ميدان الشرف سنة ١٩٥٩.–

اقتراب من صمت قبر. صمت إنســـاني. صمت مليء، مليء بالطهارة حيث الصفاء البلوري، [illegible] العالم القابل للهلاك.





هذه أختك رفيقتك في الكفاح، خيرة.

ظافرة في الخامسة عشرة من العمر، لأكبر

الإمبراطوريات.

•



931
الشهيدة
فاطمة
1957



لغز بطل بلا اسم،

لغز على وزرة بلا اسم وبلا عمر، فلا معلم لك إلا رقم منحه لك شعب كواجب ذاكرة.

عشرات الصفائح مصفوفة تخلد أثرك المقطوع.

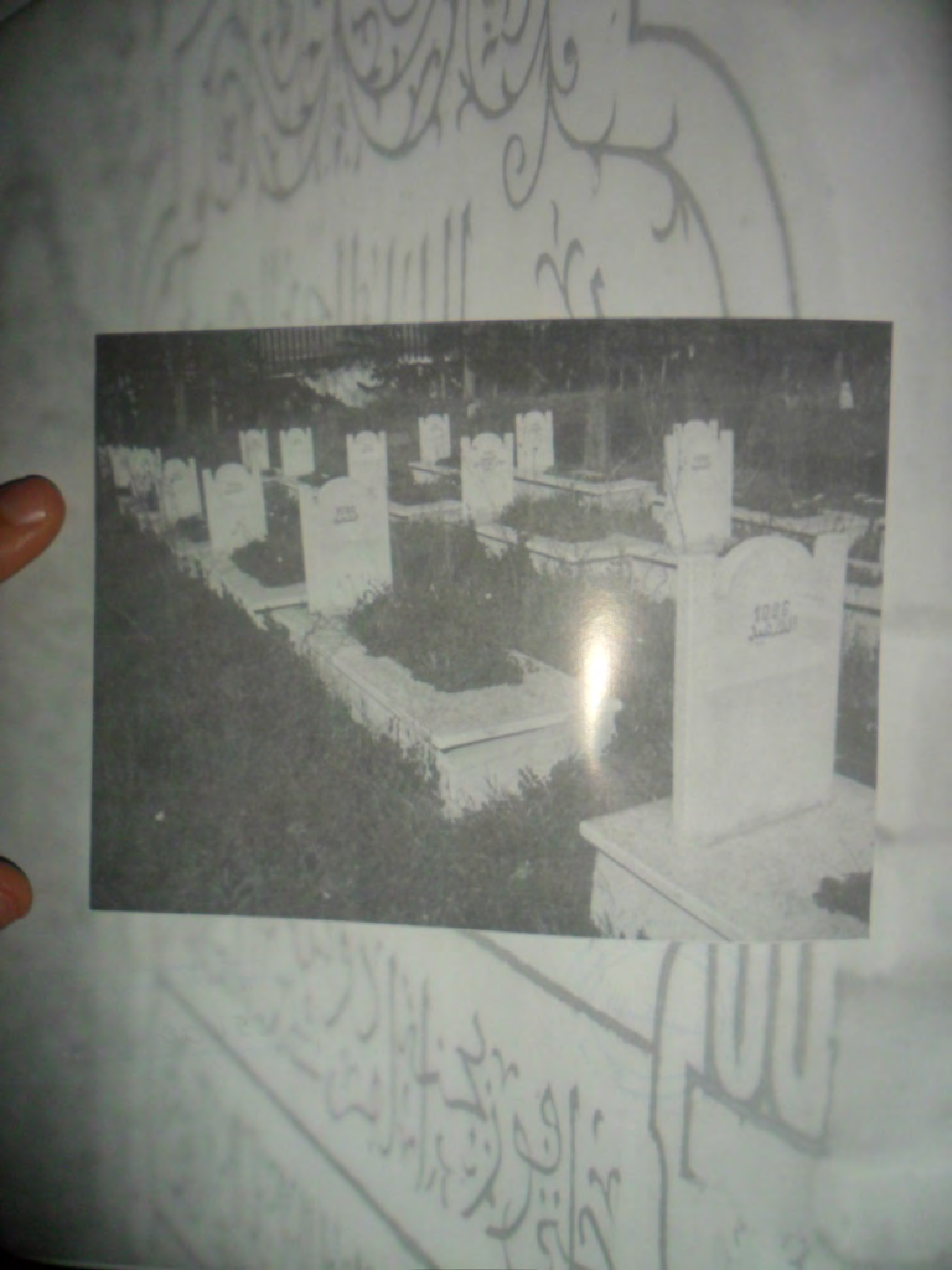
أنت كالمخطط المرسوم من لوحة بلا لحم ولا نفس.

لكن سرك لن يكون أبدا هشا ما دام يدفع النسيان، وينمي النبات الأخضر على قبرك.

أنت تتحرك بملء [illegible] اوية مخبأة من تذكر مبهم، مُتكلم بكلمات [illegible] ك، بقريتك، بماضيك، في ألغاز عجيبة لعقد [illegible] ق.

إن علامة المجهول للوجه المسحوق، للجسم الممزق، تذكر الزوار الذين يمرون أمام قبره، الدناءة العميقة لقاتله.

*





طبع بمطبعة AGP

وهران 2011



هدا الكتاب طبع
بدعم من وزيرة الثقافة
بمناسبة تظاهرة
تلمسان عاصمة الثقافة الاسلامية ٢٠١١